مطبوعات
كتابي
يصدرها حلمي مراد
تشارلس ديكنز
قصة مدينتين
٨
قروش

تشارلس ديكنز

قصة مدينتين

A TALE OF TWO CITIES

مطبوعات

كتابى

ملاحق خاصة تصدر عن « كتابى » فى المناسبات، متضمنة ترجمة كتاب طويل كامل من الكتب العالمية الممتازة ، القصصية وغير القصصية، فى كل موضوع، لاعظم المؤلفين

يصدرها : حلمى مراد

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع فؤاد الاول بالقاهرة
تليفون ٦٥٦٠٨

الكتاب الاول

هذه القصة

عزيزى القارىء ..

◆ عندما كتب ديكنز «قصة مدينتين» كى تنشر تباعا فى احدى مجلات لندن ، فى الفترة بين ٣٠ أبريل و٢٦ نوفمبر سنة ١٨٥٩ ، كان قد انقضى على نشوب الثورة الفرنسية قرابة سبعين عاما ، دخلت خلالها الثورة المذكورة فى التاريخ ، وانفسحت الفرصة امام الباحثين كى يمحصوا احداثها تمحيصا بدقة المؤرخ المحقق ، فيجردوا تاريخها من شوائب الحشو والاضافة والتهويل ، ويتركوه للاجيال التالية مرجعا موثوقا به لاعظم واعنف ثورة عرفتها البشرية ..

وقد يدور بخاطرك لاول وهلة ان «قصة مدينتين» هى قبل كل شىء «قصة» من نسج خيال مؤلفها ، شتان بينها وبين التاريخ والواقع .. لكن المقطوع به فى هذا الصدد أنها قصة «تاريخية» بكل ما يحمل هذا الوصف من معنى ، أى أن جميع حوادثها مبنية على وقائع جرت على مسرح الثورة بالفعل قبل أن يؤلف ديكنز من وحيها قصته .. فهو لم تكد تواتيه فكرتها ويشرع فى كتابتها ، حتى ارتدى عباءة المؤرخ النزيه الذى يقدر مسئولية كل كلمة يتركها للاجيال التالية من قرائه ، فلم يسمح لقلمه بان ينساق وراء اغراء خياله الروائى ، أو وراء ميل خاص يستهدف ارضاء عواطف هذا الفريق أو ذاك من أنصار الثورة أو خصومها .. وانما سيطر على قلمه سيطرة مثالية فريدة ، فخلت القصة من أى تحيز فى الحكم أو ميل الى فريق دون فريق .. بل ان ديكنز كان متزنا الى أبعد الحدود فنصب فى يده ميزان العدالة الصارم ، بحيث لم يورد صغيرة أو كبيرة الا وقد استمدها من الحقائق الثابتة التى قام عليها اكثر من دليل .. أو على حد تعبيره فى تقديمه للقصة :

«لقد حققت ما قاساه اشخاص القصة وما فعلوه ، كما لو كنت قد قاسيته كله بنفسى وفعلته .. وحيثما ترد فى صفحات القصة أية اشارة ـ ولو ضئيلة ـ الى أحوال الشعب الفرنسى سواء قبل الثورة او اثناءها ، فهى اشارة صادقة مستقاة من يقين شهود عدول .. وكل أملى أن اكون قد اضفت وسيلة جديدة تيسر فهم ذلك العصر الرهيب .. ولو ان احدا لا يستطيع أن يطمع فى اضافة مزيد الى فلسفة تلك الثورة كما أرخها مستر «توماس كارليل» فى كتابه الخالد عنها .. »

وجريا على هذا المبدأ الذى رسمه ديكنز لنفسه فى كتابته للقصة ، لم يحاول أن يغض او يغالى فى وصفه لتطرف الثوار ، فلم يفقد عهد الارهاب على صفحات القصة شيئا من الوانه الصارخة الدامية التى سجلها التاريخ .. ولا فقدت مذابح سبتمبر ، وسجون الثورة ، وعربات الموت ، والمقصلة

.. ذرة من رهبتها ودلالاتها المروعة .. وهكذا رأينا غضب الثوار حين يفتك بحائكة ثياب بريئة عقابا لها على تهمة وهمية .. وعشنا مع الجماهير الصاخبة وقد أطلقت لعنفها العنان فعلقت فوق حرابها رأسا مبتورا لفتاة !

لكن ديكنز وهو يعالج - بأمانة - تطرف الثوار ، لا يسمح لنفسه بان ينسى لحظة طغيان النبـلاء القدامى ، وتلك الحقبـة الطويلـة من المظالم والاضطهادات التى سبقت الثورة وكانت السبب المباشر الذى مهد لها ثم اطلقها من عقالها .. ومن ثم رأينا القصة تجمع فى مشاهدها المتناوبة بين تطرف هؤلاء ، وتطرف أولئك - فتتلاعب بعواطفنا من النقيض الى النقيض ! - دون أن تخل بموازين التقدير السليم والحياد الشريف ، العسير ، اللذين بقيا بمنجاة من كل شائبة .. يشهدان بعظمة ديكنز الخالدة

وحبكة ((قصة مدينتين)) ، فى عنفها وقوتها ، تجمع كل العناصر الرئيسية لمآسى «اسخيلوس» اليونانية : فالنقمة التى تصيب فى الاولى اسرة «افريموند» هى بعينها النقمة التى تصيب فى الاخيرة أسرة ((أتريوس)) .. والفطرسة فى الاثنين هى نفس الفطرسة ، التى تلد القسوة المتجردة من الانسانية .. وهذه تلد بدورها الجريمة .. والجريمة تولد الانتقام .. الخ - حتى لا يبقى ثمة مخرج للقصتين آخر الامر غير استئصال شأفة الاسرتين اللتين كتبت عليهما اللعنة !.. ولكن بالنسبة لكليهما ، يبرز فى اللحظة الاخيرة منقذ غير متوقع : ففى المأساة اليونانية تتدخل ((بالاس اثينا)) ، بحكمة آلهة جبل الاولمب الرصينة ، كى تنقذ ((أوريستيس)) المطارد من قبضة الناقمين !.. وفى الثانية لا تقيض الاقدار لسليل أسرة افريموند منقذا من الآلهة الخالدين ، لكنها تسوق اليه منقذا من البشر لا تقل تضحيته السامية عن افعال الآلهة !

◆ ولعنوان القصة مغزاه الذى يوحى بقصد المؤلف الذى توخاه منه ، فهو قد أراد منه أن يقارن بين الفوضى التى كانت ضاربة اطنابها - فى وقت واحد - فى كل من فرنسا وانجلترا ، خلال الاعوام السابقة مباشرة لنشوب الثورة فى الدولة الاولى - ولو ان سوء الحالة فى فرنسا كان راجح الكفة فى هذه المقارنة .. فلئن كانت محاكمة جاسوس وضيع فى محكمة ((أولد بيلى)) الانجليزية حادثا كريها فى ذاته ، لكنه لا يعد شيئا بالقياس الى خطابات ((الوشاية)) التى زجت بطبيب برىء فى غياهب سجن ((الباستيل)) الفرنسى الرهيب ، دون أى اتهام او محاكمة !

بقيت ملاحظة اخيرة عن شخصيات الرواية ، تتصل بطابع ديكنز الغالب فى قصصه - واعنى به تركيزه اكبر قدر من الجاذبية فى اشخاص ((الصف الثانى)) ، بحيث لا يملك القارىء الا ان يخصهم بنصيب من اعجابه يفوق نصيب بطل القصة او بطلتها اللذين يحتلان المكان الاول من مسرح الحوادث! .. والا فلتقارن شخصية ((دافيد كوبرفيلد)) مثلا بشخصية ((مستر ميكوبر))

.. أو قارن شخصيتى «دارنى» و «لوسى مانيت» ، بشخصية «سيدنى كارتون» فى قصتنا هذه ، تشعر بهذا الشعور الذى أحدثك عنه .. ولاسيما حين ساق ديكنز على لسان كارتون فى الفصل الختامى عبارات خالدة لعلها أروع ما كتب فى جميع رواياته على الاطلاق ـ بل ربما كانت من أروع ما كتب فى تاريخ الادب العالمى قاطبة ! ـ فانت حين تقـرأها للمرة الاولى ، أو للمرة العشرين ، لن تملك عينك الا ان تدمع ، وقلبك الا أن يدمى ، وضميرك الا أن يرتعش تأثرا وانفعالا ..

اما «ديفارج» ـ الزوج والزوجة ـ فيقفان فى صف وحدهما .. فهما من أعظم وأرهب مخلوقات ديكنز ، بل ربما مخلوقات الادب القصصى بأسره .. وهما لا يملكان الا ان يذكراك بمخلوقى شكسبير الخالدين ايضا : «ماكبث» ، و«ليدى ماكبث» !.. فمثل ليدى ماكبث نرى مدام ديفارج وكأنها تخاطب زوجها المتخاذل فى أكثر من موقف : « ايها المتردد الواهن .. اعطنى الخنجر !» .. ومع ذلك فان ليدى ماكبث أجفلت عن قتل «دنكان» العاجز بيديها حين رأته يشبه أباها وهو نائم !.. اما مدام ديفارج فما كانت لتستشعر هـذا «الضعف» ، او تسمح له بأن يحيد بها عن هدفها .. فكان جوابها على كل مناشدة للرحمة او الاعتدال : «قل للرياح والنار متى ينبغى ان تقف .. أما انا فلا !» ومع ذلك فنحن قد نلتمس لمدام ديفارج بعض العذر ، فان دوافعها كانت اقوى من دوافع بطلة شكسبير .. فهى لم تكن مدفوعة بمجرد المطامع الرخيصة ، وانما بذكريات المظالم القاسية التى صرخت فيها تطلب الانتقام ممن اضطهدوا قومها .. فلبت مدام ديفارج نداءها ، متنقلـة بين جماعة بعد جماعة من النسوة المنهمكات فى أشغال الابرة ، فى حى «سان انطوان» ، وكأنها رسول للنقمة والبغضاء ، والحقد والكراهية .. لكنه رسول تحسن الدنيا صنيعا اذا لم تنجب مثيلا له مرة أخرى !

عزيزى القارىء ..

◆ قد تقول لى بعد هذا : ان هذه الطبعة العربية التى بين يديك انما اخذت عن النص الانجليزى «العصرى» ، لا النص الاصلى الكامل .. وردى على هذا اننى كنت اتمنى ان اقدم اليك ترجمة النص الكامل المذكور ، لولا حائل مادى لا حيلة لى فيه ، هو أن ترجمة ذلك النص تستغرق من صفحات كتابى مالا يقل عن خمسمائة صفحة ، تتكلف من نفقات الطباعة والورق مالا يسمح ببيع النسخة باقل من عشرين قرشا .. وهو ما اعتقد انك لن تقبله او ترحب به بحال !

ومع ذلك فانا فى انتظار رأيك المفصل فى هذا الشأن ، وفى كل ما يعن لك من آراء وخواطر .. وعلى ضوئه سوف يتقرر حجم هـذه المطبوعات الجديدة ، وثمنها ، وشتى ما يتصل بها

والله ولى التوفيق

حلمي مراد

المؤلف

١٨١٢ - ١٨٧٠

◆ ولد « تشارلس ديكنز » فى ٧ فبراير سنة ١٨١٢ من أبوين فقيرين ‥ واشتغل فى صباه « نقاشا » ، وفى شبابه الباكر كاتب محام ، ثم مخبرا صحفيا‥ لكنه كان يهوى الكتابة والادب ، فثابر عليهما حتى ذاع صيته كمؤلف روائى - يعتبره الانجليز اليوم أعظم كتابهم الروائيين فى جميع العصور ! - وقد نبغ ديكنز فى وصف الشخصيات والاماكن ، ولا سيما من الطبقات الفقيرة والاحياء الفقيرة ‥ كما نبغ فى السخرية والدعابة ، وكرس قلمه اللاذع فى اكثر رواياته لاصلاح المفاسد الاجتماعية عن طريق شن حملات قاسية عليها الامر الذى كان له فى حالات كثيرة أثره المباشر فى مبادرة الحكومات الى تصحيح هذه الاوضاع وازالة تلك المفاسد

(اقرأ قصة حياة ديكنز مفصلة فى العدد ١٧ من «كتابى»)

مقدمة الكتاب

◆ كان العصر خير العصور ، وكان أسوأ العصور ‥ كان عصر الحكمة ، وكان عصر الحماقة ‥ كان عصر الايمان ، وكان عصر الشك والكفران ‥ كان موسم النور ، وكان موسم الظلام ‥ كان ربيع الامل ، وكان شتاء اليأس ‥ كان المستقبل يعدنا بكل شىء ، ولم يكن أمامنا مجال للامل فى شىء ‥ كنا جميعا فى طريقنا المباشر الى النعيم ، وكنا جميعا فى طريقنا الى الجحيم ‥ وبالاختصار ، فقد كان ذوو السلطان يومئذ يصرون على أن يكون التطرف طابع العهد ، سواء فى الخير أو الشر !

وكان يجلس على عرش انجلترا ملك ذو فك بارز وملكة ذات وجه قبيح .. وكان يجلس على عرش فرنسا ملك ذو فك بارز وملكة ذات وجه مليح !.. وفى كلا البلدين ، كان واضحا وضوح الشمس لسادة الدولة أن الاوضاع فى مجموعها قد استقرت الى الابد ..

كان العام عام ألف وسبعمائة وخمسة وسبعين .. وكانت فرنسا تنحدر بسرعة من القمة التى تربعت فوقها زمنا . كانت تطبع أوراقا مالية وتنفقها ، وتتسلى الى جانب ذلك - تحت زعامة رؤسائها الدينيين - بطائفة من الافعال « الانسانية » ، كأن تحكم على شاب بأن تقطع يداه ، وينتزع لسانه « بالكماشة » ، ويحرق جسمه وهو حى ! لا لذنب سوى انه لم يخر ساجدا على ركبتيه ، أثناء انهمار المطر، تحية واجلالا لموكب جماعة من الرهبان المارين على مرمى البصر ، على بعد أربعين أو خمسين مترا !

ولست أستبعد انه - ساعة اعدام ذلك الشاب التعس - كانت تنمو فى غابات فرنسا أشجار كتب لها الحطاب الاعظم - القدر - أن تقطع يوما وتصنع منها منصة المقصلة التى خلد التاريخ فيما بعد سيرتها الرهيبة .. كما لست أستبعد أن فى المخازن المتواضعة لبعض فلاحى الريف ، كانت تحتمى من قسوة الطقس فى ذلك اليوم المطير بالذات، عربات نقل (كارة) ملطخة بالوحل ، وبقاذورات الخنازير وفضلات الدجاج .. وقد ادخرها الفلاح الاعظم - الموت - كى تكون هى بعينها، فى عهد الثورة، « عربات الموت » التى تحمل النبلاء المحكوم عليهم الى ساحة الاعدام !

لكن ذلك الحطاب وزميله الفلاح ، برغم أنهما كانا يعملان بلا

انقطاع ، الا أنهما كانا يعملان فى صمت ٠٠ وهكذا لم يسمعهما أحد وهما يواصلان سيرهما الحثيث، بخطوات مكتومةكان يكفى أن يرتاب انسان فى يقظة أصحابها كى يعد كافرا ، وخائنا ٠٠

❖

◆ أما انجلترا ، فكان فيهـا من النظام والامن ما يكفى كى يبرر التفاخر القومى ، أو الكبرياء الوطنى !٠٠ كانت السرقات الجريئة بواسطة العصابات المسلحة ، وأعمال النهب والسلب وقطع الطريق ، تقع فى قلب العـاصمة كل ليلة !٠٠ وكانت العائلات تحذر علنا من مغادرة المدينـة ـ ولو لاقصر فترة من الزمن ـ الا بعد أن تنقل أولا أثاث بيوتها الى مخازن عامة آمنة ، لحمايتها من اللصوص !

وكان قاطع الطريق فى الليل ، هو بعينه التاجر الشريف فى النهار ٠٠ وكان لا يعدم فرصة يتعرف فيها عليه نفر من زملائه التجار الذين اعترض طريقهم وسلبهم أموالهم وهو متنكر فى زى (القبطان) ، فيطلقون الرصاص على رأسه فى شـهامة ثم يواصلون سفرهم !

وكان كثيرا ما يحدث أن يعترض « عربة البريد » سبعة من قطاع الطريق ، فيقتل حارسها ثلاثة منهم قبل أن تنفد ذخيرته فيقتله الاربعة البـاقون ويفوزون بغنيمتهم من المسروقات فى سـلام !

وكان المسجونون فى سجون لندن يشتبكون فى معارك مع حراسهم ، ساخرين من سطوة القانون ٠٠ واللصوص ينشلون الصلبان الماسية من رقاب السادة النبلاء فى صالونات البلاط الملكى !٠٠ والفرسان يقتحمون مبنى « سان جايلز » بحثا عن

البضائع المهربة ، فيطلق الغوغاء النار على الفرسان ٠٠ ويطلق الفرسان النار على الغوغاء ٠٠ دون أن يرى أحد فى هذه الحوادث خروجا يعتد به على القانون والنظام !

وأثناء ذلك كله ،كان الجلاد مشغولا كالعهد به على الدوام : آنا يسوق أمامه صفوفا من المجرمين المختلفى النزعات ٠٠ وآونة يشنق يوم السبت لصا ضبط يسرق منزلا يوم الثلاثاء ٠٠ آنا يحرق أيادى العشرات من الناس عند بوابة (نيوجيت) ، وآونة يحرق المنشورات أمام باب قاعة وستمنستر ! اليوم ينتزع حياة قاتل أثيم ، وغدا حياة مشال تعس نشل من صبى فلاح مبلغا زهيدا قد يكون ستة بنسات !

❉

◆ كل هذه الاشياء ، وآلاف مثلها ، كانت تحدث فى ذلك العام المبارك ، عام ألف وسبعمائة وخمسة وسبعين ٠٠ بينما الحطاب والفلاح يعملان بلا توان ٠٠ وذينك الملكان ، بفكيهما البارزين ٠٠ وتينك الملكتان ، بوجهيهما القبيح والمليح ٠٠ يطأون الارض بخيلائهم ، وضجيجهم ، وهرجهم ، ويمارسون حقوقهم الآلهية بسطوة جبارة ٠٠ ويد من حديد !

كل ذلك وعام ألف وسبعمائة وخمسة وسبعين ، يقود أصحاب الجلالة ـ كما يقود ربوات من المخلوقات الصغيرة الحقيرة ، وأفراد الجماهير الغفيرة (الذين من بينهم أبطال هذه القصة) ـ فى الطريق المحتوم الذى يترامى أمامهم !

الفصل الاول

حانة مسيو ديفارج

◆ **كان** حى « سان انطوان » من أفقر أحياء باريس .. يطالعك على وجوه أطفاله ، وفى أصواتهم الحزينة ، ذلك الذبول الذى هو طابع الكهول من الرجال . وقد ارتسم الجوع على وجه كل رجل وامرأة من ساكنيه ، وخلت حوانيته الا من أردأ بقايا اللحوم ، وأخشن أرغفة الخبز .. بحيث لم يكن فى الشارع شىء بهيج سوى حوانيت بيع الاسلحة ، التى كانت تحوى أحد السكاكين ذات النصال اللامعة ، وأفتك البنادق !.. وكأنما كانت هذه الاسلحة البراقة قابعة في انتظار اليوم الذى تنطلق فيه من مكانها لتؤدى مهمتها الرهيبة !

وفى اليوم الذى تبدأ فيه قصتنا كان برميل كبير من النبيذ قد سقط من احدى العربات فى شارع سان انطوان ، فانكسر وتدفق منه النبيذ الاحمر فوق أرض الشارع الحجرية ، وانساب بين شقوق الحجارة الخشنة ، وتكونت منه بحيرات صغيرة فى جحورها المنخفضة ..

وسرعان ما ترك أهل الحى القريبون من المكان أعمالهم وهرعوا لينالوا نصيبا من النبيذ قبل أن تبتلعه الارض ، فركع بعضهم وحاول أن يجمع جرعات منه فى يديه ، ولكن أكثره كان ينساب بين أصابعهم قبل أن يبلغ أفواههم !.. وجاء نفر منهم بأكواب وحاولوا أن يملأوها .. بينما غمس آخرون خرقا من القماش فى النبيذ وعصروها فى حلوقهم .. وهكذا رنت فى شارع الفقر والبؤس بعض الضحكات الجذلة ، لبضع لحظات .. ولكن سرعان ما جف كل النبيذ ، وماتت الضحكات ، وعاد التعساء الى ماكان يشغلهم من قبل ..

وغمس رجل طويل القامة اصبعه فى وحل الطريق ، الذى احمر من لون النبيذ ، ثم كتب على الحائط أربعة حروف كبيرة قانية : « الدم ! »

ولسوف يأتى يوم تسيل فيه الدماء فى شوارع حى « سان انطوان » فتحيل أرضها الى حجارة حمراء !

❖

◆ **كان** برميل النبيذ فى طريقه الى الحانة الواقعة عند منعطف الشارع ، فلما انكسر خرج صاحبها « مسيو ديفارج » على صوت الهرج ليرى مايجرى . وكان الرجل قوى البنية ، فى نحو الثلاثين ، عارى الرأس ، ذا وجه تبدو عليه الطيبة فى مجموعه ، لكنه ينبىء عن قوة العزم ، والبعد كل البعد عن الضعف .. فهو من ذلك الطراز من الرجال الذين اذا استثيرت عداوتهم صاروا مبعثا للرهبة والخوف !

وقف مسيو ديفارج ينظر الى المعركة الناشبة حول النبيذ برهة ، ثم قال يحدث نفسه : « لا شأن لى بما حدث ، فما دام البرميل قد انكسر فعليهم أن يأتوا لى بغيره ! » .. وحينئذ أبصر بالرجل الذى كتب تلك الكلمة الدموية الرهيبة على الحائط ، فهتف به : « هل جننت ياجاسبار ؟ لماذا بربك تكتب هكذا فى الطريق العام ؟ أليست هناك أماكن أفضل من الشارع لتكتب فيها مثل هذه الكلمات ؟ »

وعاد الى داخل الحانة ، حيث كانت تجلس زوجته مدام ديفارج ـ **وكانت امرأة فى مثل سنه ، ذات عينين نفاذتين ، ووجه صارم القسمات .. وان بدت حركاتها وتصرفاتها غاية فى الهدوء والاناة ! ـ فلما أقبل زوجها سعلت سعلة خفيفة وأشارت له بعينيها الى اتجاه معين ، لتسترعى انتباهه الى أشخاص دخلوا الحانة قبل لحظات ..!**

أدار صاحب الحانة بصره حواليه فى الاتجـــاه الذى أومأت اليه ·· حتى استقرت عيناه على كهل تصحبه غادة فى مقتبـــل العمر ، وقد انتحيا ركنا من المكان ·· وبرغم انه كان فى الحانة رواد آخرون ، فقد كانوا جميعا مألوفين لصاحبها ، ما عدا هذين الغريبين · فلما مر بهما لاحظ أن الكهل قد أومأ الى صاحبته كما لو كان يريد أن يقول لها : « هذا هو رجلنا ! »

فحدث ديفارج نفسه : « ترى ماذا يفعل هذان الشخصـــان هنا ؟ انني لا أعرفهما ! »

وتظاهر بأنه لم يتنبه للغريبين ، واشتبك فى حديث مع ثلاثة رجال كانوا يشربون فى « البار » ·· فقال له أحدهم : « كيف الحال يا **(جاك)** ؟ هل فرغ النبيذ كله من البرميل الذى انكسر؟»

فأجابه ديفارج : « حتى آخر قطرة يا **(جاك)** »

فقال الرجل الثانى : « انه ليس من المألوف أن يذوق هؤلاء التعساء طعم النبيذ ، بل طعم أى شىء سوى الخبز الاسود ، والموت ! أليس كذلك يا **(جاك)** »

فأجاب مسيو ديفارج : «هو ذاك يا **(جاك)** »

ووضع الثالث كأسه على المنضدة ، وهو يقول : «رباه ! ان هذا القطيع البائس ما يفتأ يحس بمرارة الحياة فى فمـــه ·· فلكم يقاسى هؤلاء التعساء من شظف العيش ومشقته · ألست على حق يا **(جاك)** ؟ »

فأجاب مسيو ديفارج : « انك لعلى حق يا **(جاك)** »

ثم استرعت انتباهه حركة بدرت من مدام ديفارج ، فقـــال لمحدثيه : « أيها السادة ، ان الحجرة التى ترغبون فى رؤيتها تقع فى أعلى السلم ·· فامضوا الى الدهليز ، وقد سبق لاحدكم أن عرف طريقه ، وهو سيقودكم ·· »

وعندئذ دفع الثلاثة حساب ما شربوا من النبيذ ومضوا ·· واذ ذاك تقدم الكهل الغريب من مسيو ديفارج وطلب أن يتحدث اليه · وكان حديثهما قصيرا ، بدت خلاله علائم الانتباه العميق

جلية على وجه مسيو ديفارج من البداية .. وبعد هنيهة أومأ لمحدثه برأسه وخرج . وعندئذ أشار الكهل الى الفتـــاة التى بصحبته واتجها ناحية الدهليز ..

.. بينما واصلت مدام ديفارج شغل الابرة ، دون أن يبدو عليها أنها لاحظت شيئا !

أما الكهل ــ وكان يدعى مستر « جارفس لورى » ــ ومرافقته « لوسى مانيت » ، فقد لحقا بصاحب الحانة فى الدهليز الذى كان قد أرشد الرجال الثلاثة اليه منذ برهة .. وهناك بدر من ديفارج تصرف غريب : ركع على احدى ركبتيه ولثم يد الفتـاة بشفتيه !

كان ديفارج فى وقت ما خادما للدكتور مانيت ، والد لوسى مانيت ! وقد ماتت والدة لوسى والابنة ما تزال طفلة ، واختفى الاب فى ظروف غامضة بحيث لم يعلم أحد ما حــدث له !.. وكانت أمواله مودعة فى مصرف « تلسون » بانجلترا ، فلمـــا اختفى جاءوا بالصغيرة لوسى الى لندن حيث أقيم مستر « جارفس لورى » ــ الموظف ببنك تلسون والصديق القديم لوالدها ــ وصيا على أموالها ومتكفلا بأمر تنشئتها وتعليمها .. فعهد بها الى مربية انجليزية تدعى « مس بروس » كى تتولى تربيتهـــا ورعايتها . وكانت هذه المرأة من الطيبة بحيث صارت لها بمثابة الام ، ووهبتها حياتها طائعة مختارة ..

وهاهى ذى «لوسى» قد غدت امرأة، وهرعت اليوم الى باريس بصحبة مستر لورى سعيا الى التحقق من نبأ غريب بلغهمـــا ، مؤداه **أن الوالد المفقود « الدكتور مانيت » الذى حسبه الجميع قد مات ، انما هو ما يزال على قيد الحياة ! وقد كان سجينا فى سجن باريس الكبير « الباستيل » ، ثم أطلق الآن سراحه ونقل الى حيث يقوم على رعايته خادمه القديم ديفارج ..**

ولم يكد ديفارج يعرف شخصية زائرى حانته الغريبين ، حتى انتصب واقفا وقد أصاب سحنته تغير ملحوظ ، بدد منها

كل أثر للمرح أو الرضى وأحل مكانه نظرة غضب وكراهية ٠٠ كراهية لاولئك الذين ارتكبوا اثما شنيعا فى حق رجل يحبه ٠

وقال ديفارج وهو يقود الزائرين الى الدهليز المؤدى الى أعلى : « ان درجات السلم عالية ، فلنصعد على مهل ٠٠ »

فهمس مستر لورى يسأله : « هل الدكتور مانيت بمفرده ؟ »

ـ طبعا ، لقد ألف الوحدة منذ أمد طويل بحيث لم يعد يحتمل صحبة انسان آخر !

ـ وهل تغير كثيرا ؟

ـ تغير ؟ انك سوف لا تعرفه !

فلما اقتربوا من نهاية السلم أخرج ديفارج من جيبه مفتاحا٠٠

ـ هل توصد دونه الباب ؟

ـ أعتقد أن ذلك أسلم له ٠٠

ـ لماذا ؟

ـ لماذا ؟ لانه عاش فى السجن دهرا طويلا حتى لصار يرتاع اذا ترك بابه مفتوحا !

فقال مستر لورى وقد تملكه العجب :

ـ رباه ٠٠ أهذا ممكن ؟

فأجاب ديفارج فى مرارة :

ـ نعم، ممكن٠٠ بل ان مثل هذه الامور ليست ممكنة فحسب فى عالمنا الجميل ، وانما هى تحدث فى الواقع كل يوم ٠٠ هذا ما صارت اليه الحال فى فرنسا !

تبودل هذا الحوار بصوت خافت كالهمس ، بحيث لم يبلغ حرف منه مسامع الفتاة ٠٠ وبرغم ذلك فانهم لم يصلوا الى نهاية السلم حتى ارتعدت وبدا على وجهها من علائم الجزع والفزع ما جعل مستر لورى يحاول التسرية عنها ، فقال لها متلطفا :

ـ تشجعى ياعزيزتى !٠٠ تشجعى ! فلن تمر لحظات حتى ينقضى أسوأ احتمال ٠٠ فلا تفكرى الا فىالسعادة التى ستغمره حين يراك !

وأخيرا اقتربوا من نهاية السلم ، فلم يكادوا يدورون حول المنحنى الاخير حتى رأوا ثلاثة رجال ينظرون الى داخل احدى الغرف خلال شرخ فى الباب . فلما سمع هؤلاء وقع الاقدام الصاعدة استداروا وانتصبوا .. فاذا هم أولئك الثلاثة بعينهم الذين كانوا يشربون فى الحانة قبل دقائق .. فقال لهم ديفارج : « اتركونا أيها الرفاق ، فان أمامنا مهمة نؤديها هنا »

فانسحب الثلاثة وهبطوا السلم دون أن يجيبوا بكلمة .. بينما التفت مستر لورى الى ديفارج وهمس له وقد بدا عليه الغضب : « ماذا . أو تجعل من مسيو مانيت مسخا يتفرج عليه الناس ؟ »

– بل اننى لا أعرضه الا على قليلين .. على من يفعل فيهم المنظر فعله ! وهم جميعا يحملون اسما بعينه : « جاك » .. لكنك انجليزى ولن تفهم ، فأرجوك أن تنتظر هنا قليلا ..

ودق ديفارج الباب بمفتاحه كما لو كان يريد أن يعطى انذارا للشخص الموجود فى الداخل .. ثم وضع المفتاح فى القفل وأداره فى بطء ، حتى اذا انفتح الباب أطل داخل الغرفة وقال شيئا .. فأجابه صوت خافت . واذ ذاك التفت خلفه وأشار الى مرافقيه بالدخول .. فوضع مستر لورى ذراعه حول خصر الفتاة وجذبها قائلا : « ادخلى ، ادخلى .. »

فأجابت وهى ترتعد : « اننى خائفة ! »

– خائفة من ماذا ؟

– اننى خائفة منه .. من أبى !

فطوق رقبته بذراعها المرتعدة ، وجذبها الى داخل الغرفة ..

كان يجلس فى الداخل – فوق مقعد خشبى عريض – رجل أبيض الشعر ، يولى ظهره نحو الباب ووجهه نحو النافذة التى أمامه ، وقد انحنى فى جلسته على شىء .. كان منهمكا ، منهمكا للغاية .. يصنع أحذية !

الفصل الثانى

صانع الاحذية

◆ **قال** مسيو ديفارج وهو ينظر الى الرأس الابيض المنكفىء على العمل : « يوم سعيد » ٠

وارتفع الرأس الابيض هنيهة ، ثم أجاب صوت خافت : « يوم سعيد »

ـ انك مازلت تعمل عملا متواصلا فيما أرى ؟

وبعد سكوت طويل ارتفع الرأس مرة أخرى ، وأجاب الصوت الخافت : « نعم ، اننى مازلت أعمل ٠٠ »

وكان خفوت الصوت مدعاة للاشفاق والرثاء ، وقد بدا أنه لم يبلغ هذه الدرجة من الوهن نتيجة للضعف الجسمانى فحسب، وانما نتيجة لسبب آخر أيضا ، هو « عدم الاستعمال » زمنا طويلا !٠٠ وكان الكهل يرتدى أسمالا بالية ، وله لحية بيضاء ، ووجه ضامر ، وعينان صافيتان للغاية ، حتى لتبدوان أوسع من عيون سائر الناس ٠٠

ولم يبد أدنى مبالاة بزائريه ، بل بدا كأنه لم يحس أو يعلم حتى بوجودهم فى المكان !٠٠ فقد كان واضحا ان عقله أصيب باختلال من جراء السجن الطويل ٠٠

وتقدم مستر لورى منه فى هدوء ، تاركا «لوسى» عند الباب ٠٠ فقال ديفارج يخاطب المسكين : « ان لديك ضيفا ، فاعرض عليه الحذاء الذى صنعته ٠ واشرح له من أى نوع من الاحذية هو ٠٠ »

فأجاب الصوت الواهن : « انه حذاء سيدة ، حذاء سيدة صغيرة ٠ وهو من آخر طراز ٠٠ مع انى لم أر حذاءا مثله من قبل ٠ لم أر سوى تصميم مصغر ٠٠ » ونظر الى الحذاء فى شىء من الفخر والمباهاة ، بصنعة يديه !

بينما سأله مستر لورى : « وما اسمك ؟ »

ـ اسمى ؟ مائة وخمسة ، البرج الشمالى ··

ـ ماذا ؟ أهذا كل شىء ؟

ـ مائة وخمسة ، البرج الشمالى · ·

وسأله مستر لورى : « ولكن مهنتك الاصـــلية ليست هى صناعة الاحذية ، أليس كذلك ؟ »

سكت الكهل المسن هنيهة ثم أجاب : « كلا · ليست مهنتى صناعة الاحذية · ولكنى تعلمتها فى السجن ·· فقد أذنوا لى بذلك ! »

وحدق مستر لورى فى وجهه بنظرة ثابتة ، ثم سأله : «دكتور مانيت ، ألا تتذكرنى ؟ »

وسقط الحذاء من يد الكهل على الارض ·· ونظـــر الرجل متعجبا للزائر الذى مضى يلحف فى سؤاله :

ـ دكتور مانيت ، ألا تتذكر مسيو ديفـارج الواقف هنا ؟ ألا تتذكر جارفس لورى ، الموظف القديم بالبنك ؟

نقل سجين السنين الطويلة بصره من رجل الى الآخـــر ·· وبدا أن علامة ادراك قد غشيت وجهه ·· ثم اختفت ! عاد الظلام فطمس عقله من جديد ·· فالتقط الحذاء من الارض ، واستأنف العمل فيه ··

وببطء ·· ببطء شديد ·· اقتربت لوسى من مقعـد صانع الاحذية ، ووقفت بجانبه ·· وهو مكب على عمله ··

ووقعت منه السكين ، فلما انحنى ليلتقطها ، وقعت عينه عـلى طرف ثوب الفتاة ·· فنظر اليها مرتاعا ، وهو يلتقط أنفاســه بصعوبة ·· أما الرجلان فقد تملكهما الخوف والوجل ، فقدكانت السكين فى يده ، وكانت هى قريبة جدا منه !·· ولكنها لم تبد أية علامة تنم عن الخوف ··

وسألها الكهل : « من أنت ؟ هل أنت ابنة السجان ؟ »

فأجابت وهى تتنهد : « كلا ·· »

ـ من أنت اذن ؟

لم تقو على الكلام ، ولكنها جلست بجانبه على المقعد ٠٠ فابتعد عنها ٠٠ ولكنها وضعت يدها على ذراعه ، فسقطت السكين من يده ٠٠ وفى هذه المرة لم يتحرك لالتقاطها ، بل ظل ساهما ينظر الى الفتاة ٠٠

كان شعرها الذهبى نائما فى خصلات على كتفيها ٠ وفى تهيب وضع يده ليلمسه ٠ ثم ندت عنه تنهدة عميقة ، وواصل عمله فى صنع الحذاء ٠٠

وبعد هنيهة توقف مرة أخرى ، فلمس شعر لوسى ثانية ، وجعل يتأمله بامعان ٠٠ ثم قال أخيرا : « أنه هو نفسه ، ولكن كيف يمكن أن يكون هذا ؟ »

ومد يده الى رقبته فتناول خيطا قد اسود لونه ، ينتهى بخرقة بالية ملفوفة ٠٠ وفتحها بعناية على ركبته ٠ كانت تحوى بضع شعرات ٠٠ شعرات قليلة طويلة ذهبية ، كان من زمن بعيد جدا يلفها حول اصبعه !

ثم أخذ شعرها فى يده مرة أخرى ونظر اليه مليا ٠٠ وأردف :

ـ أنه هو بذاته ٠ ولكن كيف يمكن ذلك ؟ لقد وضعت رأسها على كتفى فى تلك الليلة حينما استدعونى ٠٠ وعندما ذهبوا بى الى « البرج الشمالى » وجدت هذه الشعرات على سترتى ٠٠!

واستدار اليها على غرة بلفتة مفاجئة مخيفة ٠٠ ولكنها ظلت رابطة الجأش ! ٠٠ وحين تأهب ديفارج ومستر لورى ليخفا الى نجدتها ، ابتدرتهما فى هدوء : « أرجوكما ٠٠ لا تقتربا منا ، أو تنطقا بكلمة ، أو تأتيا بحركة ٠٠ ! »

فصاح الكهل : « صوت من هذا ؟ ما اسمك ؟ »

ـ أوه ، ياسيدى ، فى وقت آخر سوف تعرف أسمى ، ومن كانت أمى ، ومن كان أبى ٠٠٠ فانى لن أستطيع أن أبوح لك بذلك الآن ، ولا فى هذا المكان ٠ كل ما يمكننى أن أقوله لك اننى أحبك ، واننى أضرع اليك أن تقبلنى ، وأن تباركنى ! »

وأحاطت عنقه بذراعها ، وأراحت رأسه على صدرها ٠٠ كما لو كان طفلا !٠٠ ثم راحت تهدهده :

ـ أشكر الله على أن تعاستك الطويلة قد انتهت ٠٠ ولسوف نرحل من هنا الى انجلترا لنعيش فى سلام ، وفى راحة ٠٠ نعم: راحة ،راحة تامة ٠٠ فشكرا لله الذى بعد كل ما قاسيت ، أعاد اليك السلام أخيرا ! »

ولبثا هكذا وقتا طويلا ، وذراعها حوله ٠ ثم تسلل منها فى رفق الى الارض ٠٠ وساد سكون عظيم بعدالعاصفة ٠ لقد نام فى سلام وسكينة ، كطفل !

وانحنى مستر لورى على الكهل النائم ، وقال : « ينبغى أن نمضى به الآن ، فورا ! »

فقالت لوسى : « ولكن هل يتحمل مشقة السفر ؟ »

ـ انه يتحملها أكثر مما يتحمل بقاءه فى هـــذه المدينة ٠٠ البغيضة اليه !

فقال ديفارج : « هذا حق. ثم أن هنالك أسباب عديدة تجعل من المستحسن جدا أن يكون مسيو مانيت بعيدا عن فرنسا . فهل آتى بعربة وجياد ؟ »

فقال مستر لورى : « ان هذه لمهمة عسيرة ، واذا كانت هناك مهمة يجب أداؤها ، فأنا الرجل الذى يؤديها . »

واذ ذاك قالت مس مانيت : « **اذن فرجائى اليكما أن تتركانا هنا . أو تريان كيف غدا هادئا ؟ .. حسبكما ان تغلقا الباب خلفكما حين تخرجان ، واتركانا معا . لا تخشيا شيئا . انه آمن تماما معى ، وأنا آمنة تماما معه ..** »

وازاء هذا انصرف الرجلان ليعدا العدة للرحيل . فلما ذهبا ، جلست الابنة تراقب أباها . واشتد تكاثف الظلام شيئا فشيئا ، والكهل مستغرق فى سبات عميق .. حتى تسلل ضوء الفجر من شق فى الباب ، مؤذنا بحلول وقت الرحيل ..

وحين عاد الرجلان أطاع الكهل ثلاثتهم ، شأن من اعتاد طويلا ان يؤمر فيطيع ، فأكل وشرب ما أعطوه ، وارتدى الملابس التى جاؤوه بها .. ثم غادر الغرفة معهم وقد أخذت لوسى ذراعه ، بينما تناول هو يدها بين يديه وظل ممسكا بها ..

وبدأ الجمع يهبط السلم .. وحين بلغوا الشارع لم يكن أمام الحانة مارة يشهدون رحيلهم .. لم يشهده غير شخص واحد ، هو مدام ديفارج .. التى اتكأت على منضدتها عند مدخل الباب وهى تواصل أشغال الابرة ، وقد بدت كأنها لم تر أو تلحظ شيئا !

الفصل الثالث

المحاكمة

◆ **كان** بنك تلسون فى لندن من الابنية المعتبرة من الطراز العتيق ، حتى فى سنة ١٧٨٠ ! فقد كان صغيرا جدا ، ومظلما جدا ، وقبيحا جدا ، ولكن أصحابه كانوا فخورين بصغره ، وبظلمته ، وقبحه ·· لاعتقادهم أنه لو بدا فى حالة أحسن من هذه ، فانه يكون أقل احتراما فى أعين العملاء !

ولم يكن الناس ليبصروا بين الموظفين القائمين بالعمل ، فى هيبة ، ووقار ، داخل جدرانه ذات التقاليد المشرفة ·· سوى العجائز الذين أكل عليهم الدهر وشرب ! بحيث كان الاعتقاد السائد أنه اذا اشتغل شاب فى البنك ، فانهم يخفونه حتى يغدو متقدما فى السن الى الدرجة التى تؤهله لان يظهروه بعد ذلك أمام الناس !

وفى صبيحة يوم من أيام شهر مارس ، أرسل موظف من أقدم المستخدمين فى البنك يستدعى اليه المدعو « جيرى كرانشر » ــ وهو الساعى الذى يمضى وقته فى العادة جالسا خارج الباب ·

وقال المستخدم المسن : « هل تعرف المحكمة المسماة « أولد بيلى » ؟ »

فقال جيرى فى شىء من القلق : « نعم يا سيدى » ·

ــ وهل تعرف مستر لورى ؟

ــ أعرفه خيرا مما أعرف الــ « أولد بيلى » ياسيدى ··

ــ حسنا جدا · اذهب اذن الى بواب المحكمة وأبرز له هذه الرسالة الموجهة الى مستر لورى ، فيسمح لك بالدخول · وعندئذ قدم نفسك الى مستر لورى المذكور ، وانتظر حتى يطلبك ·

أخذ جيرى الخطاب وانحنى للمستخدم ، ثم انطلق الى المحكمة ٠٠ فلما وصل اليها ، وجد أن عليه أن يشق طريقه بين زحام شديد من جماهير المتفرجين القذرين الذين جذبهم من كل حدب وصوب شوقهم الملح الى مشاهدة المحاكمة التى ستجرى فى ذلك اليوم ، كى يمتعوا أنفسهم بلذة التفرج على المتهم المقبوض عليه !

وكانت الابواب كلها مخفورة بحراسة شديدة ، ولكن لم يكد جيرى يبرز الخطاب للحراس، حتى فتحوا له أحد الابواب ليدخل منه ٠٠

وسأل جيرى رجلا قريبا منه : « ما هى القضية التالية ؟ »

ـ قضية « تشارلس دارنى » ، المتهم بالتعاون مع أعداء ملك انجلترا !

واذ ذاك رأى جيرى بواب المحكمة يذهب الى مستر لورى ، حاملا الخطاب الذى فى يده ٠ وكان لورى جالسا بين المحامين فى المكان المخصص لهم فى قاعة المحكمة ٠٠ وكان محامى دارنى ـ ويدعى سترايفر ـ جالسا وقد تناثرت أمامه أوراق كثيرة ٠٠ بينما جلس فى مواجهته شخص آخر يبدو كأن كل التفاته منصرف الى تأمل السقف !٠٠ فلما وقعت عين مستر لورى على جيرى كرانشر أومأ اليه فى هدوء

ودخل القاضى قاعة الجلسة فانقطع كل حديث ٠٠ ثم سيق المتهم الى القاعة ، فتطلعت اليه جميع الانظار واشرأبت الاعناق ٠٠ ماعدا ذلك الشخص الذى كان يتأمل السقف فى غير مبالاة ، ويرتدى ثيابا يبدو عليها الاهمال ٠٠ وكان يدعى « سيدنى كارتون »

وكان المتهم « تشارلس دارنى » شابا فى نحو الخامسة والعشرين ، بادى التهذيب والهدوء ٠٠ وقد انحنى للقاضى فى أدب ، ثم خيم على قاعة المحكمة سكون شامل ٠ وكان قد أعلن

في جلسة الامس أنه برىء من التهمة الموجهة اليه ، وهى تهمة التجسس لحساب لويس ملك فرنسا فى حروبه ضد ملك انجلترا ، والتنقل لهذا الغرض بين انجلترا وفرنسا لاخطار الفرنسيين بما كان ملك انجلترا يعده من جيوش ينوى ارسالها الى كندا وشمال أمريكا ٠٠ **وقد أنصت المتهم لكل هذه الادعاءات الموجهة اليه ، في هدوء ٠٠ حتى حانت منه نظرة الى يساره فوقع بصره على شخصين لم يكد يراهما حتى تغيرت سحنته الى درجة لفتت اليهما انتباه كل من فى القاعة !**

كان هذان الشخصان : غادة لم تكد تجاوز العشرين ، وكهل كلل المشيب الناصع شعره وبدا جليا أنه أبوها ٠ وكانت الابنة ـ لوسى مانيت ـ تأخذ احدى ذراعيه فى يدها ، وهى ترمق المتهم بنظرة تنطق بالاشفاق البالغ ! وقد عرف جيرى كرانشر من الجمهور الذى يحيط به أن الفتاة وأباها قد حضرا كشاهدين ضد المتهم !

*

ووقف المدعى العام ليشرح القضية للمحكمة ، فقال : « لقد اعتاد المتهم التنقل بين انجلترا وفرنسا لبعض أعماله ، التى ماكان يمكن لاحد أن يعرف ماهيتها ، حتى حدث أن اكتشف أمرها بالمصادفة رجل مخلص هو جون بارساد ، الذى كان فى يوم من الايام صديقا للمتهم ٠٠ كما أن خادم المتهم « روجر كلاى » وجد فى جيوبه وفى حجرته أوراقا كان من بينها قوائم بتعداد الجيوش الانجليزية واتجاهاتها ٠ وهذه القوائم وان لم يمكن اثبات انها بخط المتهم ، الا أن هذا يدلنا على أنه رجل ذكى وحريص ، وقد حاول بهذه الطريقة أن يغطى مظاهر نشاطه ! »

واستدعت المحكمة « جون بارساد » المذكور ، وسمعت شهادته بصدد هذه التهمة ٠٠ ثم استجوبه مستر سترايفر محامى المتهم :

ـ ألم تكن جاسوسا من قبل ؟
ـ طبعا لا
ـ ألم يحكم عليك يوما بالسجن ؟
ـ لا ..
ـ ألم تدخل أبدا سجن المدينين المماطلين ؟
ـ لست أرى علاقة بين ذلك وبين موضوعنا ..
ـ أجب ، ألم تدخل أبدا سجن المدينين ؟
ـ بلى
ـ كم مرة ؟
ـ مرتين أو ثلاثا ..
ـ ألم يحكم عليك فى جريمة مخلة بالشرف ؟
ـ كان ذلك فقط فى لعبة قمار . وقد نسبوها الى ظلما وهم سكارى
ـ أأنت متأكد أنك تعرف المتهم جيدا ؟
ـ نعم .
ـ هل كنت تنتظر أن تعطى أجرا نظير ما أدليت به من معلومات ؟
ـ طبعا لا !

ثم جاء بعده روجر كلاى ، فقال انه رأى مرآرا مثل هذه القوائم حينما كان يرتب ملابس المتهم . وقد وجد القوائم الحالية ـ المقدمة الى المحكمة ـ فى حجرة المتهم ، ورآه يعرضها ذات مرة على رجل فرنسى فى (كاليه) ..

فلما سأل مستر سترايفر الشاهد هل كان لصا فى يوم من الايام ، أجاب بالايجاب !

ثم جاء بعد ذلك دور مستر لورى . فسئل عما اذاكان قد رأى المتهم من قبل ، فأجاب بأنه رآه يصعد الى ظهر السفينة فى كاليه ..

ـ فى أى وقت صعد الى السفينة ؟
ـ بعد انتصاف الليل بقليل ٠
ـ من كان يرافقك فى السفر يا مستر لورى ؟
ـ رفيقان ٠٠ رجل وسيدة ، وهما هنا
ـ « مس مانيت » !

واذ نوديت الفتاة التى اتجهت اليها الانظار كلها من قبل ، نهضت لتؤدى الشهادة :

ـ مس مانيت ، أنظرى الى المتهم

لقد كان من الصعب على تشارلس دارنى أن يواجه هـذا الجمهور الذى ازدحمت به قاعـة المحكمة ، ولكنه حتى الان كان يبدو هادئا رابط الجأش ٠ الا أنه أمام ذلك الشباب ، وذلك الجمال ، وذلك الاشفاق الذى أبدته نحوه لوسى مانيت ٠٠ اختلجت شفتاه انفعالا !

ـ مس مانيت ، هل رأيت المتهم من قبل ؟
ـ نعم يا سيدى
ـ أين ؟
ـ على ظهر السفينة التى ورد ذكرها الآن ٠
ـ وهل تحدثت معه ؟
ـ عندما أتى الى ظهر السفينة لاحظ أن والدى كان متعبا جدا وفى حالة صحية سيئة للغاية ، فتكرم وساعدنى فى حمايته من الريح وقسوة الطقس ٠٠
ـ وهل صعد الى ظهر السفينة بمفرده ؟
ـ كلا
ـ كم من الاشخاص كانوا معه ؟
ـ رجلان فرنسيان
ـ هل تبودلت بينهم أوراق ، كهذه القوائم مثلا ؟
ـ لقد رأيت معهم أوراقا ، ولكننى لا أعلم من أى نوع كانت ٠٠

ـ وماذا قال لك المتهم ؟
ـ لقد كان مثالا للطيبة والشفقة ، وقدم لوالدى عونا كبيرا

وهنا تساقطت دموع الشاهدة تأثرا وأردفت : « وانى آمل ألا أكافئه اليوم على صنيعه بما يؤذيه ! »

ـ كلنا نعلم يا مس مانيت أنك جئت الى هذه المحكمة بغير اختيارك ، كى تؤدى واجبـــا عليك .. فاستمرى فى الادلاء بمعلوماتك

ـ لقد قال لى أنه مسافر فى مهمة دقيقة ، ولذلك فانه يتخذ لنفسه اسما مستعارا . وأضاف أنه قد يضطر الى أن يسافر بين فرنسا وانجلترا مرات عديدة فى المستقبل .

ـ هل قال شيئا عن أمريكا ؟
ـ لقد حاول أن يوضح كيف بدأت هذه الحرب ، وكان من رأيه أن انجلترا مخطئة فى موقفها . ثم أضاف مازحا أن جورج واشنجتون سوف يكون مشهوراً فى التاريخ مثل جورج الثالث .

رفع القاضى بصره عن أوراقه فى دهشة وغضب عند سماعه هذه الكلمات ، ولاحظ كل من فى القاعة مبلغ الجزع الذى بدا على الشاهدة بمجرد تفوهها بها ..

ثم استدعى بعد ذلك « الدكتور مانيت » ، وسئل عما اذا كان قد رأى المتهم من قبل ؟

ـ مرة واحدة ، عندما زارنى فى لندن
ـ هل سافر معك على ظهر السفينة ؟
ـ لا يمكننى أن أجيب على هذا السؤال !
ـ هل هناك أى سبب خاص يدعوك الى هذا الامتناع ؟
ـ نعم .
ـ هل كان من سوء حظك أن قاسيت عذاب السجن الطويل فى وطنك ، بدون محاكمة أو اتهام ؟
ـ نعم ، كان سجنا طويلا

- هل كنت حديث العهد باطلاق سراحك ، حين التقيت بالمتهم على ظهر السفينة ؟

- لقد قالوا لى ذلك ..

- ولكن ألا تتذكر أنت شيئا بهذا الشأن ؟

- لست أتذكر شيئا مما جرى فى الفترة بين وقت اشتغالى بصناعة الاحذية فى السجن ، والوقت الذى وجدت فيه نفسى أعيش فى لندن مع ابنتى العزيزة !

ثم نودى على شاهد آخر ، قرر أنه رأى المتهم فى أحد الفنادق بمدينة ذات أهمية عسكرية خاصة ، كان فيها حوض لبناء السفن ومعسكر للجنود . وقد حاول ممثلو الاتهام التدليل من ذلك على أنه ذهب الى هناك ليحصل على معلومات هامة !

وطوال الوقت الذى استغرقته شهادة الشهود السالفين ، كان المدعو سيدنى كارتون يبدو كمن لا يلاحظ شيئا مما يجرى حوله ، مكتفيا بالجلوس فى مكانه بلا حراك ، والتطلع الى السقف ! **لكنه على أثر سماعه العبارات الاخيرة خرج من عزلته فكتب بضع كلمات على ورقة وناولها لمستر سترايفر ، الذى لم يكد يقرأها حتى سأل الشاهد :**

- هل أنت واثق من أن الشخص الذى رأيته كان هو المتهم؟

- تمام الثقة

- ألم تر قط شخصا آخر يشبه المتهم ؟

- لم أر من يشبهه الى الدرجة التى أخطىء معها فى التعرف عليه ..

- اذن أنظر جيدا الى هذا السيد ، صديقى المحامى الجالس هناك !

قال سترايفر ذلك مشيرا الى الرجل الذى أعطاه الورقة.. ثم استطرد قائلا :

ــ هل تظن أنه يشبه المتهم ؟

وعلى الرغم من أن صديقه كان زرى الثياب وبادى الاهمال فى مظهره ، وكان يرتدى زى المحامين ، فقد استطاع كل من فى المحكمة أن يلحظ الشبه العجيب الذى بينهما !

٠٠ وعندئذ استطرد مستر سترايفر : « اذا كان قد وجد فى هذه المحكمة بالذات ــ بمحض المصادفة ــ رجل آخر يشبه المتهم الى هذا الحد ٠٠ فانه يحتمل جدا أن يكون قد وجد فى ذلك الفندق شخص آخر يشبهه بنفس الدرجة ! »

وبذلك باتت هذه الشهادة معدومة

القيمة أو الدلالة ٠٠ واذ لم يبق هناك شهود آخرون تسمع شهادتهم ، سمعت المرافعات الختامية ، وأبدى القاضى ملاحظاته، ثم غادر المحلفون الاثنا عشر قاعة المحكمة كى يخلوا للمداولة تمهيدا لاصدار حكمهم ٠٠

ولا بد أن مستر كارتون كان يلاحظ ما يدور فى الجلسة

بانتباه يفوق ما بدا عليه ، اذ لم يكد يغمى على مس مانيت حتى كان هو أول من صاح :

– أيها الضابط ، ساعد السيد كى يأخذ الآنسة الى خارج المحكمة ! ألا ترى أنها على وشك السقوط ؟

وبدا على المتهم أنه تأثر تأثرا عميقا بالاضطراب الذى سببه لمس مانيت ، فسأل مستر كارتون أن يعرب لها عن بالغ أسفه لكونه تسبب فى ازعاجها ..

وغاب المحلفون ساعة ونصف ساعة ، وخلال هذا الوقت راح كرانشر فى سبات عميق .. فلما أيقظته عودتهم الى القاعة ، اتجه من فوره الى مستر لورى ، الذى ناوله ورقة كتب عليها فى عجلة ظاهرة هاتين الكلمتين : « حكم بالبراءة ! »

الفصل الرابع

سيدنى كارتون

◆ **وكان** فى استقبال « تشارلس دارنى » خارج المحكمة أصدقاؤه : الدكتور مانيت ، ولوسي مانيت ، ومستر لورى ، ومستر سترايفر الذى تولى الدفاع عنه ٠٠ ثم مستر كارتون ، مساعد سترايفر

وكان من العسير على من يرى الدكتور مانيت الآن أن يتعرف فيه على « صانع الاحذية » الذى رأيناه فى باريس ٠٠ فقد كان ظاهرا أنه عوفى تماما من تجربته القاسية ، وغدا بشوش الوجه معتدل القامة ، بادى الصحة والقوة ٠٠ غير ان ذكريات سجنه كانت تعاوده أحيانا ، فتغشى وجهه منها سحابة سوداء !٠٠ وفى مثل هذه اللحظات لم يكن فى مقدور أحد سوى ابنته المحبوبة لوسى أن يدفع عنه تلك الغيمة ٠٠

وحين أقبل مستر دارنى على مستقبليه من الاصدقاء بدأ بأن لثم يد مس مانيت فى امتنان ، ثم وجه شكره بحـــرارة الى محاميه مستر سترايفر ، الذى قال له : « اننى مسرور لكونى قد أنقذت حياتك وشرفك يامستر دارنى ٠٠ فقد كانت التهمة الموجهة اليك تهمة حمقاء ولكنها بالغة الخطورة ٠٠ »

فأجاب دارنى : « لقد أنقذت حياتى ولن أنسى ذلك أبدا ! »

بينما قال مستر لورى : « لقد كان يوما مزعجا لنا جميعا : فالآنسة لوسى تبدو مريضة، ومستر دارنى قضى ساعات رهيبة، وقد أنهكنا التعب جميعا ٠ فدعونا نعـــود الى منــــازلنا وننام »

فقال مستر سترايفر : « أنت تتكلم عن نفسك ٠ أما أنا فأمامى عمل سأقضى فيه الليل بأكمله ٠٠ »

واتجه الدكتور ببصره الى دارنى ، وبدت فى عينيه وهو يفعل ذلك نظرة غريبة ٠٠ نظرة كراهية ، بل نظرة خوف !

وقالت لوسى لابيها وهى تضع يدها فوق يده : « يا أبى ، هل نعود الى البيت ؟ »

فزفر زفرة طويلة وأجاب «نعم» ٠٠ ثم أستدعيت عربة ركبها الاب وابنته ، وانصرف فى أعقابهما مستر سترايفر بدوره ، يتبعه مستر لورى٠ وهكذا لم يبق سوى دارنى وكارتون

وقال كارتون : « يبدو عليك الاعياء يامستر دارنى »

فأجاب دارنى : « أشعر فعلا بالاعياء الشديد ٠٠ »

ـ اذن تعال واشرب معى بعض النبيذ ، فانى أعرف حانة يقدم فيها نبيذ جيد

وسرعان ما كان الرجلان جالسين فى مواجهة أحدهما الآخر ٠٠ فسأل كارتون شبيهه : « هل تشعر أنك عدت الى الحياة مرة أخرى ؟ »

ـ نعم ٠٠ انى ما زلت مضطربا ، ولكننى أشعر بما تقول !

وملأ كارتون كأسه بالنبيذ ، وأفرغها فى جوفه ٠٠ ثم قال : « ان هذا الشعور لابد أن يمنحك راحة وطمأنينة ٠٠ أما أنا ، فان رغبتى العظمى هى أن أنسى أننى أنتسب الى هذا العالم ٠٠ فليس فيه ثمة شىء طيب يستطيع أن يمنحنى اياه ٠٠ ولا فى أنا شىء صالح ينفعه ٠٠ »

لم يعرف تشارلس دارنى كيف يجيب على هذا القول ٠٠ بينما استطرد كارتون : « **ان مس مانيت غادة مكتملة الجمال ياصاحبى ٠٠ فما أروع أن يكون الانسان موضع عطف ورثاء حسناء فاتنة مثلها !؟ أنها تعطف عليك وتبكى من أجلك ، لقد رأيت ذلك بنفسى !** »

ومرة أخرى لم يجب دارنى ، وانما اكتفى بأن شكر محدثه من أجل معاونته الفعالة له أثناء المحاكمة ٠٠ فأجابه كارتون : « لست أريد منك شكرا ولا أنا أستحقه ٠٠ ولكن دعنى أسألك يامستر دارنى : هل تظننى حقا أشبهك ؟ »

ـ الحقيقة يامستر كارتون، أننى لم أفكر فى ذلك من قبل ٠٠

ـ حسنا ، فكر فيه الآن اذن ٠٠

فأجاب دارنى : «لقد تصرفت كما لو كنت تشبهنى ، ولكنى لا أظنك كذلك »

ـ ولا أنا أظن ذلك أيضا !

فقال دارنى : « ومع هذا فليس ثمة ما يمنع أن نفترق صديقين ٠ دعنى أدفع الحساب »

فقال كارتون : « أو تنوى حقا أن تدفع الحساب عن كلينا ؟ »

فأجاب دارنى : « نعم ، سأفعل »

فقال كارتون : « اذن أعطنى كأسا أخرى من النبيذ أيها

الساقى ، ثم تعال وأيقظنى فى الساعة العاشرة. »

ودفع دارنى الحساب ، وحيى زميله تحية المساء . **فلما صار هذا وحيدا ، قام ونظر الى نفسه فى مرآة معلقة على الحائط .. فرأى فيها رجلا لديه مواهب عظيمة من الفكر ، ونبل الشعور ، ولكن مواهبه ضائعة لم يحسن استغلالها .. لقد أحنقه على دارنى انه كان يشبهه شبها كبيرا فى مظهره ، ولكنه كان يتفوق عليه تفوقا كبيرا فى أمور أخرى ! .. ومرت بخاطره لوسى ، فملأت ذكراها قلبه بالكراهية لرفيقه الذى انصرف منذ حين !**

وبعد أن شرب كارتون المزيد من النبيذ ، انكفأ بوجهه على ذراعه ، وراح فى النعاس ..

❖

وبعد ساعات أيقظه الساقى كما أوصاه ، فنهض ومضى الى مكتب زميله ورئيسه مستر سترايفر ، ليساعده فى تحضير قضاياه التى ستنظر فى اليوم التالى ..

وفيما كان سيدنى كارتون يقوم بهذا العمل ، كان سترايفر مضطجعا على كنبة يراقبه .. وكان الاثنان يتقاسمان زجاجة من الخمر ــ ففى ذلك العهد كان أكثر الناس يشربون بل يفرطون فى الشراب ! ــ فلما أتم كارتون تحضير الاوراق أعطاها لمستر سترايفر ، ثم تناقشا فى القضايا معا .. وشربا قدرا آخر من النبيذ ..

فقال سترايفر : « الآن قد فرغنا ياسيدنى . والحق أنك حضرت قضية اليوم تحضيرا بارعا جدا .. نعم لقد كنت بارعا حقا وكان لكل سؤال أعددته أثره المباشر ، حتى فندت أقوال أولئك الشهود تفنيدا تاما ! »

فأجاب كارتون : « أنا دائما بارع ، ألست كذلك ؟ »

ــ لست أنكر ذلك . ولكن مالى أراك ضيق الصدر فى هذه

الليلة ؟ انك دائما كعهدى بك ، نفس سيدنى كارتون القـديم الذى كان معى فى المدرسة : آنا يبدو متفائلا مرحا ، وآونة أخرى متشائما يائسا !

ـ نعم ، انى ما زلت نفس الشخص ، ولى نفس الحظ العاثر . حتى فى المدرسة كنت أكتب الواجبات المدرسية للتلاميذ الآخرين بدلا من أن أكتبها لنفسى !

ـ لقد كان الخطأ دائما خطأك وحدك .. فان جهودك تخلو على الدوام من كل نشاط أو هدف مرسوم .. والا فلماذا تحسبنى نجحت كل هذا النجاح بينما فشلت أنت هذا الفشل ؟

ـ ان بعض السبب فى هذا أنك تعطينى أجرا لكى أساعدك ، لكنك كنت دائما فى المقدمة ، وكنت أنا دائما فى المؤخرة ..

فقال سترايفر : « نعم . لقد أخذت أنت مكانك الذى تستحقه، وأخذت أنا مكانى الذى أستحقه »

فعاد كارتون يقول : « **حتى عندما كنا تلميذين معا فى باريس، كنت أنت ظاهرا فى كل مكان ، وكنت أنا منزويا عن كل مكان!**

ـ وغلطة من كانت هذه ؟

ـ بربك دعنا من الكلام فى ذلك .

ـ حسنا اذن ، فلنشرب كأسا أخيرة .. فى صحة الشاهدة الجميلة

ـ انها ليست جميلة ..

ـ بل انها لكذلك .. وقد كانت موضع اعجاب كل من فى المحكمة .

ـ ان تلك المحكمة ليست حكما فى تقدير الجمال !

ـ انك تدهشنى . لقد ظننت حينذاك أنك شديد الاعجاب بتلك الفتاة .. حتى لقد كنت أسرع الجميع فى التنبـــه الى اغمائها !

ـ كل الحاضرين تنبهوا الى ما حدث لها ‥ والآن ، لقد فرغ ما عندى من النبيذ . فلأمض اذن الى فراشى ‥

وغادر المنزل ، فدلف خلال الشوارع الباردة الكئيبة ‥ ثم صعد الى غرفة عالية فألقى بنفسه هنالك على سرير مهمل ، كان قد طالما بلل وسائده بدموعه العقيمة ‥

لقد كان رجلا نابهـا ، طيب القلب ، ومع ذلك فانه لم يكن قديرا قط على أن ينفع نفسه ، أو أن يجد السـلام وسكينة النفس !

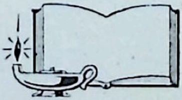

الفصل الخامس

الدكتور مانيت فى لندن

◆ فى أحد أيام الاحـــد ، بعد أربعة أشهر من محاكمـــة تشارلس دارنى ، كان المستر جارفس لورى يسير فى الشوارع المشمسة ، فى طريقه الى حيث يتناول الغداء فى منزل صديقه الدكتور مانيت •• وكان الدكتور يشغل طابقين من عمارة فى شارع هادىء من شـــوارع لندن ، وهناك كان فى استطاعته أن يكسب ما يفى بحاجته ، من اســـتقبال المرضى الذين كانوا يفدون اليه فى طلب مشورته الطبية

فلما وصل مستر لورى الى المنزل دق جرس الباب ، حتى اذا فتحه له الخادم سأله :

ــ هل الدكتور مانيت موجود ؟

ــ انه لم يعد بعد يا سيدى

ــ هل المس لوسى موجودة ؟

ــ انها لم تعد بعد يا سيدى

ــ هل المس بروس موجودة ؟

ــ لست متأكدا يا سيدى

ــ حسنا • سأصعد وأنتظر ••

وكانت ابنة الطبيب قد جعلت المنزل مريحا وبهيجا ، فقد كانت لها يدان بارعتان وذوق رفيع • وكان كل طابق يتكون من ثلاث غرف تصلها الابواب ببعضها البعض بحيث يمر الهواء طليقا بينها جميعا • وفيما كان مستر لورى مارا بين الحجرات لاحظ فى ركن من أركان الحجرة الثالثة منضدة صانع الاحذية التى لم تعد تستعمل ، والادوات التى كان الدكتور مانيت يشتغل بها أثناء اقامته فى حانة ديفارج بباريس •• فتساءل مستر لورى

بصوت مرتفع : « اننى لفى عجب من احتفاظه بأشياء تذكره بما قاسى من متاعب وآلام ! »

فأجابه على غرة صوت مس بروس الحاد ، بحيث كاد يقفز من المفاجأة :

ـ ولماذا يأخذك العجب من ذلك ؟

ثم أردفت المربية تسأله : « كيف حالك ؟ »

ـ على ما يرام ، أشكرك ٠٠ وكيف حالك أنت ؟

ـ اننى جد قلقة على سيدتى ٠٠

ـ هل لى أن أسأل عن السبب ؟

ـ ان أناسا أكثر من اللازم ، ممن لا يناسبونها بحال ، لا يفتأون يأتون لزيارتها !

وكان مستر لورى يعلم أن مس بروس كانت تغضب كلما أبدى الناس اهتماما بلوسى ٠٠ كما أنه كان يعرف عن المربية أيضا **انها من أولئك النساء غير الانانيات ، المستعدات لان يجعلن من أنفسهن ـ بدافع من الحب البرىء والاعجاب الخالص ـ عبيدا بمحض اختيارهن للشباب عندما يفقدنه ٠٠ وللجمال الذى لم يكن لهن فى يوم من الايام ٠٠ وللآمال اللامعة التى لم تشرق قط على حياتهن المظلمة !٠٠ وكان لورى يعرف أيضا انه لا شىء فى الحياة أفضل من الخدمة المخلصة الصادرة عن القلب ٠ وقد احترم مس بروس أكثر من كثير من السيدات المثريات اللواتى كن يكتنزن المال فى بنك تلسون !**

وأردف يقول للمرأة معقبا على كلامها : « دعينى أسألك سؤالا : ألا يذكر الدكتور مانيت قط ، فى حديثه مع لوسى ، الوقت الذى كان فيه يصنع الاحذية ؟ »

ـ مطلقا !

ـ أليس هذا عجيبا ؟ اننا جميعا نعلم أنه برىء من أية جريمة ، فلماذا يحرص على تجاهل تلك الايام ؟

ـ أعتقد أنه يخاف من الموضوع كله ٠٠ وربما كان يخشى أن يفقد ذاكرته مرة أخرى ، وهذا مما يجعل الموضوع غير سار بالنسبة اليه !

ـ هذا صحيح ٠٠

ـ انه يستيقظ أحيانا فى منتصف الليل ، ويذرع غرفته جيئة وذهابا ٠٠ فتوافيه سيدتى الصغيرة ويظلان يمشيان فى الغرفة حتى يهدأ اضطرابه ويفرخ روعه ٠٠ لكنه لا يصارحها قط بشىء عن سبب قلقه وانزعاجه ٠٠

وهنا بدأ يتردد فى الشارع صـــدى أقدام ، كما لو كانت الاشارة الى التمشى المضنى جيئة وذهابا قد تسببت فى تجسمه الآن فى هذا الصدى ! ٠٠ فقالت مس بروس : « ها هم قد أتوا ٠٠ »

وقد بدت البهجة على المربية الطيبة وهى تعين حبيبتها لوسى على خلع ردائها وقبعتها ، ثم وهى تمر بيدها على شعرها الفاخر ٠٠ كما ابتهجت لوسى بدورها بذلك وشكرتها ٠٠ فابتســـم الدكتور وهو يقول ان مس بروس قد أتلفت ابنته بذلك الحنان العظيم الذى تغمرها به !

وبعد تناول العشاء خرجوا فجلسوا فى الحديقة ٠ **وفيما هم هناك جاء مستر دارنى ليزورهم ، فاســـتقبله الدكتور مانيت ولوسى بترحاب وبشاشة ، وان ظهر الاستياء على مس بروس فغادرت المكان !**

وأثناء جلستهم تشعب بهم الحديث وتطرق الى موضوع أبنية لندن القديمة ، فقال دارنى للطبيب أثناء الحديث : « هل رأيت جزءا كبيرا من برج لندن ؟ »

ـ لقد ذهبنا ، لوسى وأنا ، الى هناك ٠٠ فرأينا منه ما يكفى لان نعتبره أثرا يستحق المشاهدة

واذ ذاك قال دارنى بشىء من الضيق : « لقد كنت فيه كما تعلمان٠٠حينما اعتقلونى بتهمة العداء للملك ٠٠ لكننى لم أتمكن من رؤية أكثره ٠ وقد قالوا لى وقتئذ شيئا عجيبا ٠٠ »

فسألت لوسى : « وما هو ؟ »

ـ لقد اكتشف العمال أثناء اجراء بعض الاصلاحات هناك حجرة قديمة مهجورة، ازدحمت جدرانها بالتواريخ ، والاسماء ، والصلوات ، وغير ذلك مما كتبه المسجونون القدامى ٠٠ وكانت احدى هذه الكلمات المكتوبة كلمة: أحفر! ٠٠ فلما فحصت الارضية بعناية وجدوا تحت أحد الاحجار رماد بعض الاوراق وبقايا حقيبة من الجلد ٠ ترى ماذا كتب السجين المجهول فى تلك الاوراق ؟ هذا ما لن يتسنى لاحد أن يعرفه أبدا ٠٠ لكنه كتب شيئا على أى حال !

وهنا صاحت لوسى وقد حانت منها نظرة الى أبيها : « أبى ! أأنت مريض ؟ »

فقفز الدكتور مانيت فجأة وقد وضع يده على رأسه، وأزعجتهم جميعا نظرته :

ـ كلا يا عزيزتى ، لست مريضا ٠٠ وانما هى تلك القطرات الكبيرة من المطر التى تساقطت فجعلتنى أقفز ٠٠ ومن الافضل أن ندخل الآن ٠

واسترد الشيخ حالته الطبيعية على الفور .. وكان المطـــر يتساقط بالفعل ، وقد كشف الطبيب ظهر يده لمجالسيه فاذا قطرات منه قد انتثرت عليه .. **وعندئذ خيل الى مستر لورى انه لمح على وجه الطبيب حين استقر بصره على دارنى نفس النظرة الغريبة التى حدجه بها حين التقى به على أثر خروجه من المحكمة يوم محاكمته !**

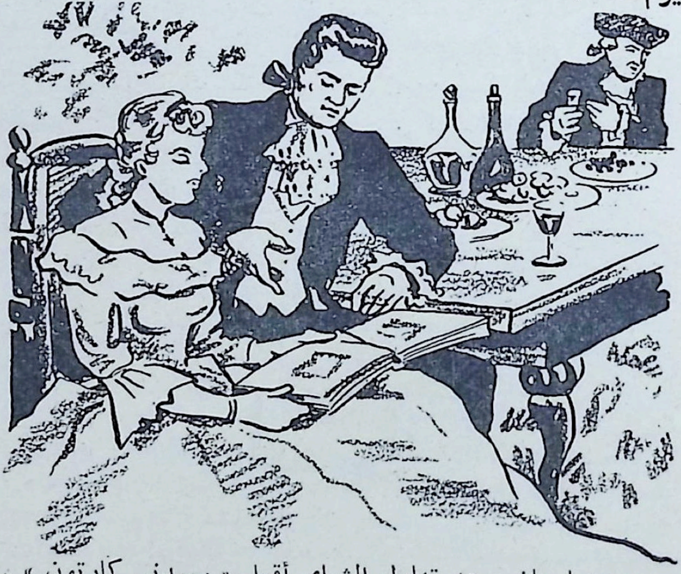

وعندما حان موعد تناول الشاى أقبل « سيدنى كارتون » ، ووقف متكئا على افريز النافذة .. بينما جلس الباقون بالقرب منها يراقبون المطر المنهمر فى الخارج ..

وقال الدكتور مانيت : « ان عاصفة على وشك الهبوب ، ولو أنها مقبلة ببطء .. »

فقال كارتون : « لكنها مقبلة بغير شك ٠٠ »

وقد أقبلت العاصفة أخيرا ٠٠ وكان اندفاع المطـر وزمجرة الرعد والبرق من العنف بحيث لم يعد فى الامكان سماع صوت أحد خلالها ٠٠ واستمرت العاصفة الى ما بعد بزوغ القمر عند منتصف الليل ٠٠

وأثناء خروج الضيوف دق جرس كاتدرائية « سان بول » الضخم دقة واحدة ، تجاوبت فى الجو الذى عاد صحوا ٠٠ فقال لورى : « مساء الخير يا مستر كارتون ٠٠ مساء الخير يا دكتور مانيت ٠٠ ترى هل سنشهد ليلة أخرى كهذه معا ؟ »

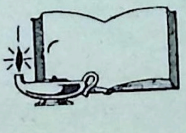

الفصل السادس

حادث فى باريس

◆ **غادر** المركيز « افريموند » قصر ملك فرنسا ومضى يهبط « السلاملك » الفخم متجها نحو فناء القصر ، ثم صعد الى عربته فانطلقت به على الفور . وكان المركيز فى حالة نفسية سيئة ، فان الملك لم يلق اليه بالا ، ولا تحدث اليه أحد ممن كانوا فى القصر !

وفى مثل هذه الظروف ، كان يلذ له أن يرى عامة الشعب يتفرقون مذعورين أمام خيوله الجامحة ، ناجين بأنفسهم من أن يقعوا تحت حوافرها فتسحقهم العربة تحت عجلاتها !.. فقد كان الحوذى يقود العربة وكأنه يطارد عدوا ، ولم يبذل سيده أدنى محاولة للحد من اندفاعه . وكانت قد تكررت الشكوى والتذمر من اندفاع النبلاء الوحشى بعرباتهم خلال الشوارع الضيقة ، الامر الذى يهدد حياة قاطنيها الفقراء بأشد الاخطار.. لكن شيئا لم يعمل لوقف أسباب هذه الشكاوى ، وترك المساكين لينقذوا أنفسهم اذا استطاعوا ..

وانطلقت عربة المركيز تنهب الطرقات والمنعطفات ، والنسوة يصرخن أمامها وهن يختطفن أطفالهن من طريقها .. وحين بلغت منحنى أحد الشوارع ، بجوار نافورة للمياه ، دهمت احدى عجلاتها صبيا صغيرا !.. وارتفعت صرخة عالية من عدة أصوات، فجذب الحوذى ألجمة جياده .. ووقفت العربة آخر الامر

وتساءل المركيز فى هدوء وهو يطل من نافذة عربته : « ماذا حدث ؟ » .. بينما كان رجل طويل القامة قد التقط جثة الصغير وأرقدها بجوار النافورة ، ثم راح يبكى عليها وينتحب بصوت مرتفع ..

وقال أحد الواقفين هنـــاك : « عفوا يا ســيدى المركيز ٠٠ انه طفل »

– ولكن لماذا يحدث الرجل مثل هذه الضجة المزعجـة ؟ هل الطفل ابنه ؟

– عفوا يا سيدى المركيز ٠٠ انه ابنه

وانتصب الرجل الطويل فجأة من على الارض وجرى مسرعا نحو العربة ، فوضع المركيز يده على سيفه ٠٠

وصاح الرجل ، رافعا ذراعيه فوق رأسه : « لقد قتل ! لقد مات ! »

وتجمهر الناس ، ونظروا جميعا الى المـــركيز ٠٠ لم يقولوا شيئا ، ولكنهم نظروا اليه والكراهية تطل من عيونهم !

أما المركيز فنظر اليهم جميعا كما لو كانوا فيرانا خرجت من جحورها ٠٠ ثم أخرج كيسا من النقود وقال : « انه ليدهشنى أنكم أيها العامة لا تستطيعون المحافظة على أنفسكم وعلى أطفالكم، فأنتم دائما تعترضون العربات فى وسط الطريق ٠٠ من أدرانى أنكم لم تلحقوا أذى بالخيل ؟٠٠ اسمع يا هذا ، أعطه هــذه النقود ٠٠ »

وألقى من النافذة بقطعة من العملة الذهبية ، فاتجهت جميع الانظار الى حيث سقطت ·· بينما صاح الرجـــل الطويل مرة أخرى : « لقد مات ! »

وتفرقت الجماهير ، مفسحة الطريق لرجل آخر لم يكد يراه الرجل الطويل حتى ألقى بنفسه على كتفيه منتحبا ، وأشار الى نسوة كن منحنيات فوق الجثمان الصغير ، وأخريات كن يرحن ويجئن حوله فى رفق ، لائذات بالصمت·· شأنهن شأن الرجال أيضا

وقال القادم الاخير : « لقد رأيت ما حدث·· وانى لاعرف كل شىء ·· **كن شجاعا يا عزيزى جاسبار ، فلعله أفضل للطفـــل الصغير المسكين أن يموت من أن يعيش · لقد مات فى لحظة ، بغير ألم ، فهل كان فى استطاعته أن يعيش بغير ألم ؟** »

فناداه المركيز قائلا : « أنت يا هذا ! يبدو أنك رجل حكيم·· فماذا يسمونك ؟ »

ـ انهم يسموننى « ديفارج »

ـ وما صنعتك ؟

ـ بائع خمر ··

ـ التقط هذا ، أيها الرجل الحكيم ، بائع الخمر ··

قالهـــا المركيز وهو يلقى اليه بدوره بقطعة أخرى من العملة الذهبية ، ثم استطرد : « انفقها كيفما تشاء ·· ولكن ترى هل أصيبت الخيل بمكروه ؟ »

ودون أن يكلف نفسه عناء النظر الى الجمهور مرة أخرى ، اضطجع السيد فى مقعده وتأهب لمواصلة المسير ، وقد بدا عليه مظهر الرجل الرفيع المقام الذى كسر بالمصادفة شيئا عاديا ثم دفع ثمنه ·· ولكن فجأة أزعجته قطعة من العملة الذهبية طارت الى داخل العربة ثم رن صوت سقوطها على أرضها !

فصاح المركيز بحوذيه : « قف ٠٠ أوقف الخيل ٠٠ من الذى ألقى هذه ؟ »

ونظر الى المكان الذى كان يقف فيه ديفارج ، ولكنه لم يجد له أثرا ٠٠ وانما كانت تقف فى مكانه امرأة سمراء مليئة الجسم، تشتغل بالابرة !٠٠ فقال المركيز ، فى هدوء ودون أن يرفع صوته : « **ياكلاب ، اننى مستعد لان أدوس عمدا على أى واحد منكم ٠٠ ولو عرفت من الذى ألقى بهذه لما ترددت فى سحقه تحت عجلات عربتى !** »

لكنهم كانوا كالعبيد ٠٠ يرتعدون فرقا من النبلاء بحيث لم يجرؤ واحد منهم على أن يرفع بصره الى المركيز ! ٠٠ ومع ذلك فان المرأة التى كانت واقفة تشتغل بالابرة جرؤت على النظر اليه ٠٠ بل انها ثبتت نظرتها فى وجهه مباشرة ! فتظاهر بأنه لم يلاحظها ، واضطجع فى مقعده الى الوراء ٠٠ ثم أمر حوذيه بالمسير ٠٠

❖

وانطلقت به العربة مسرعة عبر شوارع باريس التعسة التى تخيم عليها معالم الفقر٠٠ومنها تابعت سيرها الى الخلاء الرحب، فدرجت فيه خلال طريق ريفى جميل ، لا يغض من جماله غير فقر محصولات الغلال فى الحقول ٠٠ الذى لا يدانيه غير فقر العمال الاجراء الذين كانوا يحاولون أن يحصدوها ٠٠ وكأن الارض شاركت الاهلين بؤسهم وفاقتهم !

وقرب غروب الشمس ، أخذت العربة تصعد فى بطء تلا وعرا ٠٠ **فتطلع اليها عامل من المشتغلين باصلاح الطريق ٠ تطلع اليها وقد ارتسمت الدهشة فى عينيه ٠٠ ثم جرى يسابقها الى قمة التل ، وهناك حلق فيها مرة أخرى وهى تمر به ، ثم وهى تنحدر مسرعة نحو أسفل التل** ، فى اتجاه قرية فقيرة كان

أهلها جميعهم يعانون شظف العيش ، وقد جلس أكثرهم أمام أبواب بيوتهم يحضرون للعشـــاء ما استطاعوا جمعه من طعـــام ضئيل ٠٠ ولم يكن يرى فى القرية غير أطفال قليلين ، أما الكلاب فلم يكن لها وجود على الاطلاق !

ذلك ان الضرائب الباهظة قد قتلت القرية أو أوشكت : ضريبة الدولة ٠٠ وضريبة الكنيسة ٠٠ وضريبة الارض ٠٠ والضريبة المحلية ، والضريبة العامة ٠٠ الخ ـ بحيث كان الذى يدعو للدهشة حقا ان يبقى فى القرية نفر من أهلها على الاطلاق !

ودلفت العربة الى داخل القرية ، فتطلع الفلاحون اليها ، ونظر الماركيز الى الاهالى ٠٠ وكان عامل اصلاح الطرق قد هبط من أعلى التل ، فصاح المركيز بحوذيه :

ـ أحضر هذا الشخص الى هنا !

وأحضر الشخص ٠٠

ـ لقد مررت بك فى الطريق !

ـ نعم ياسيدى ٠ كان لى الشرف أن مررت بى فخامتك

ـ لقد مررت بك مرة على سفح التل ، ثم مرة أخرى فوق قمته ٠٠ فلماذا كنت تنظر الى العربة تلك النظرة الغريبة ؟

ـ سيدى ، لقد كنت أنظر الى الرجل ٠٠ كان هناك رجل تحت العربة ، قد تعلق بمؤخرتها !

ـ ومن كان هذا الشخص ؟ أنت تعرف كل أهالى المنطقة ، فمن كان ذلك الشخص ؟

ـ عفوك ياسيدى ٠ أنه لم يكن من هذه المنطقة ٠٠ كان غريبا عنا ، لم أره قط من قبل !

ـ وماذا كان شكله ؟

ـ سيدى ، انه كان مغطى كله بالغبار الابيض ، كالشبح ٠٠ وكان طويلا كالعفريت !

– وماذا حدث له ؟ هل فر ؟

– لقد انطلق يعدو نحو أسفل التـــل ، كما لو كان يطارده شيطان !

فقال السيد : «يالك من مغفل ! لعله كان لصا ومع ذلك فانك لم تقل شيئا ‥ اغرب عن وجهى !‥ مسيو جابيل ، مسيو جابيل ! »

كان جابيل وكيل المركيز ، الذى يجمـــع لـــه الضرائب والايجارات ‥ فلما خف على نداء سيده ، قال له :

– اذا جاء ذلك الرجل الى القرية فلتعتقله فورا ياجابيل ‥

– يسعدنى ياسيدى أن أنفذ أوامرك ‥

– والآن انطلق الى مهمتك ‥

❖

كانت الظلمة قد أطبقت تماما على الكون حين عاد المركيز الى قصره ، فأقبل الخدم لاستقباله والمصابيح فى أيديهم ‥ وحين فتحوا له الباب الكبير ابتدرهم بقوله :

– اننى أنتظر ابن أخى «تشارلس» القادم من لندن ٠ فهل وصل ؟

– لم يصل بعد ياسيدى ‥

الفصل السابع

دارنى وعمه المركيز

◆ **صعد** المركيز الدرجات العريضة لقصره ، وقد تقدمه خادم يحمل مصباحا ، ثم عبر الصالة الكبرى وصعد السلم الداخلية الى حجراته الثلاث الخاصة ، حيث أعدت فى الحجرة الثالثة منها مائدة عشاء لشخصين ..

وقال المركيز : « اذن فابن أخى لم يصل بعد .. أحسبه لن يصل الليلة ما دام قد تأخر حتى الآن . ومع ذلك فلتتركوا المائدة كما هى .. وسوف أتناول العشاء بعد ربع ساعة »

وفيما كان يتناول عشاءه سمع صوت عجلات ، فأمر باخطار ابن أخيه بأن مائدة العشاء تنتظره . وبعد برهة قصيرة جاء ابن الآخ ـ وكان معروفا فى انجلترا باسم « تشارلس دارنى » ! ـ فلم يكد يأخذ مجلسه حول المائدة حتى قال لعمه المركيز :

ـ هل غادرت باريس أمس ياسيدى ؟

ـ نعم .. وأنت ؟

ـ لقد جئت رأسا من لندن

ـ اذن فقد مكثت فى الخارج وقتا طويلا ..

ـ عاقتنى عن العودة مشاغل مختلفة

فقال العم : « بلا شك »

ـ ولقد تعرضت لخطر جسيم أثناء وجودى هناك . واننى لاتساءل عما اذا كنت قد عملت على اثارة المزيد من الشكوك حول الظروف التى أحاطت بى !

فقال العم مازحا : « كلا ، كلا ، كلا »

لكن ابن الاخ نظر الى المركيز نظرة ملؤها الارتياب العميق.. ثم استطرد قائلا : « أعلم انك كنت لتوقفنى عن نشاطى لـو

استطعت ٠٠ والواقع اننى مغتبط لتضاؤل نفوذك فى القصر ، فلو كان لك نفوذ أعظم لزججت بى فى السجن ! »

فقال العم فى هدوء عجيب : « يحتمل ٠٠ فمن أجل شرف العائلة ربما كنت ألجأ حتى الى ذلك ! »

ـ أرى انك ـ لحسن الحظ ـ قد استقبلت فى القصر مرة أخرى ببرود !

فأجاب العم : « يؤسفنى أن أقول ان مظاهر الحظوة ـ حتى البسيطة ـ للعائلات الكبيرة ، صارت الآن عسيرة المنال ٠٠فما أكثر الساعين اليها هذه الايام ، بعكس الحال فى الماضى ٠٠ ولكن فى كل هذه النواحى تغيرت فرنسا تغيرا كبيرا ، نحو الاسوأ ٠٠ فلقد كانت لآبائنا سلطة الحياة والموت على العامة والدهماء فى المناطق المحيطة بهم ، ولكننا فقدنا الكثير من حقوقنا ٠٠ وقد صارت الامور كلها غاية فى السوء ٠٠ غاية فى السوء ! »

فقال ابن الاخ فى لهجة حزينة : « الواقع اننا أسأنا التصرف بما ارتكبنا من حماقات ، سواء فى الماضى أو الحاضر ، بحيث أعتقد ان اسمنا بات مكروها أكثر من أى اسم آخر فى فرنسا !»

ـ دعنا نأمل ذلك ٠٠ فالكراهية انما تدل على الاحترام !

ـ ان الاحترام الوحيد الذى أراه حولنا هو الاحترام الناشىء عن الخوف والعبودية ٠ اننى أمقت تلك التقاليد التى خلفها لى والدى ـ أخوك ٠٠ صحيح اننى عنصر منها ، لكنى عنصر عاجز، أحاول أن أطيع آخر رجاء توجهت الى به أمى وهى تحتضر : ان أكون رحيما ، وأصلح ما سلف من أخطائنا ، وأكفر عن المظالم التى أرتكبت ٠٠

ـ اذا كنت تبغى منى مساعدة فى هذا الشأن ، فانك عبثا سوف تنتظرها !

ـ ان أملاك الاسرة ، وفرنسا ، قد أصبحت بالنسبة لى بمثابة الاشياء المفقودة ٠٠ لقد تخليت عنها !

ـ لكنها لم تصر بعد ملكا لك ٠٠

ـ اذا آلت الى غدا ، فانى لن أقبلها !

ـ أعتقد أن هذا أمر بعيد الاحتمال ٠٠

ـ ان هذه الممتلكات قد قامت على البؤس والخراب ٠٠ انها « برج » شيد من الاسراف والتبذير ، وسوء الادارة ، والدين ، والجوع والآلام !

فهتف المركيز فى لهجة الارتياح : « ها ! »

ـ فاذا أصبحت ملكا لى فى يوم من الايام ، فاننى سأعطيها لشخص يمكنه أن يحررها من الثقل الذى يجذبها الى القاع !

فقال العم : « وأنت ؟ كيف تنوى أن تعيش ؟»

ـ سأعمل ٠٠

ـ فى انجلترا على ما أظن ؟

ـ نعم ٠ فان اسم العائلة لن يتأذى منى هناك ٠٠ لاننى لن أحمله

فسأل المركيز : « هل تعرف رجلا فرنسيا وجد الامان والطمأنينة هناك ؟ »

ـ نعم

ـ طبيب وابنته ؟

ـ نعم

ـ انك متعب فيما أحسب ٠٠ طابت ليلتك

واذ أحنى رأسه فى أدب ، كان فى نظرته غموض أقلق ابن أخيه وصدمه ٠٠ لكنه كان يعلم ان لا جدوى من توجيه أية أسئلة اليه ٠٠

وعاد العم يكرر : « طابت ليلتك ! أتمنى لك نوما هنيئا ! »

ثم قال للخادم : « أضىء لابن أخى الطريق الى مخدعه » ٠٠

وأضاف هامسا لنفسه : « ٠٠ واحرقه فى فراشه اذا شئت ! »

وبعد أن ذهب ابن الاخ : مضى المركيز بدوره الى مخدعه ٠٠ وخيم الظلام على القصر العظيم، كما خيم على كل المروج المحيطة به ٠٠ فحلم الجائع بالطعام الشهى ، والمتعب بالراحة والهناء ٠٠ ثم أقبلت طلائع يوم جديد ، حين غمرت الشمس بضيائها القصر والاشجار ، والحقول وما فى القرية من ديار ٠٠ وقام كل رجل وامرأة فى زمهرير الصباح الباكر منطلقين الى أعمالهم : البعض ليفلح الارض ، والبعض ليقود أبقاره العجفاء الى ماقد تجده من حشائش نابتة على حافتى الطريق ٠٠

واستيقظ القصر أخيرا ٠٠ ففتحت النوافذ ، وأطلت الخيل من فوق أكتافها الى ضياء البكور وصباحته اللذين يتدفقان من مداخل الابواب ٠٠ ونبحت الكلاب وهى موثقة فى سلاسلها ، تتعجل لحظة اطلاقها منها ٠٠ وكانت هذه كلها أحداث الصباح المألوفة التى تتكرر كل يوم ٠٠ **ولكن لماذا كان الجرس الكبير للقصر يدق ؟ ولماذا كان رجال يهرعون صاعدين وهابطين درجات السلم ؟ ولماذا أسرج آخرون خيولهم وامتطوها على عجل ثم انطلقوا بها ينهبون الارض نهبا ؟ وماذا كانت تعنى كل هذه العجلة ٠٠ وما سر هذه الضوضاء ؟**

كان السر يكمن فى فراش المركيز ، حيث انغرس فى قلب جثته الهامدة المسجاة فوق الفراش ، نصل سكين ! وحول مقبض السكين قصاصة ورق كتبت عليها بخط ردىء هذه الكلمات : « سوقوه سريعا الى قبره ٠٠ هذا من «جاك» ! »

الفصـــل الثامن

دارنى يبوح بحبه

◆ ومر اثنا عشر شهرا استقر خلالهـا تشارلس دارنى فى لندن كمدرس للغة الفرنسية والادب ٠٠ وكان يقضى بعض وقته فى كمبريدج ، حيث ذاع صيته كمعلم ممتاز لطلبتهـا الذين يدرسون اللغات الحديثة ٠٠

على أن دارنى كان شابا ، لشبابه عليه حق٠٠ فلم يكن غريبا ان أحب ٠٠ **أحب « لوسى مانيت » منذ الساعة التى تعرض فيها للخطر ٠٠ فانه ما سمع قط صوتا أعذب من صوتها اللطيف ، ولا رأى وجها أحلى من وجهها الذى طالعه حين وقف على حافة القبر !٠٠ لكنه لم يفاتحها يوما فى الامر ٠٠ وها قد انقضى عام منذ غادر فرنسا ، وما تزال ذكرى القصر ، ومصرع عمه ، تطوف بخياله كحلم مزعج ٠٠ بحيث لم تواته الظروف كى يتحدث فى أمر حبه الى انسان !**

والآن ٠٠ هذا هو فى يوم من أيام الصيف ، وقد عاد أخيرا من « كمبريدج » عاقدا العزم على أن يصارح الدكتور مانيت بحبه للوسى ٠٠ وهكذا خرج من مسكنه قاصدا الى بيت الطبيب ، بعد أن اختار لهذه المهمة موعدا قدر أن تكون الابنة فيه خارج البيت، بصحبة مربيتها مس بروس ٠٠

وحين وصل وجد الدكتور فى مقعده الطويل بجوار النافذة، وكان قد استرد الى حد ما حيويته التى أعانته على احتمال آلامه الرهيبة فى أيام محنته ، فغدا الآن قوى العقل والجسم ٠٠ وصار يكثر من الدراسة والاطلاع على الجديد من كتب الطب ، الذى عاد يزاوله من جديد ٠٠

وكان دكتور مانيت فى العادة رجلا مرحا بادى الانشراح ، يندر جدا أن تغيم على صفاء ذهنه سحابة سوداء .. فلما دخل عليه دارنى وضع الكهل الكتاب الذى كان يقرأه ومد يده الى ضيفه هاشا ، قائلا : « تشارلس دارنى ! لكم يبهجنى أن أراك ، فنحن ننتظرك منذ أيام. وقد كان مستر سترايفر ومستر كارتون هنا أمس ، وكرر كلاهما القول انك قد تأخرت فى الحضور أكثر من عادتك .. »

لم يشعر دارنى بالارتياح وهو يسمع نبأ زيارة هذين الرجلين للبيت ! لكنه أخفى شعوره واستفسر عن صحة مس مانيت ..

– انها بخير .. وقد خرجت بصحبة مس بروس ولكنها ستعود حالا

– دكتور مانيت ، لقد كنت أعلم انها خارج البيت ، ولهذا انتهزت فرصة غيابها كى أتحدث اليك ..

وسكت قليلا .. فاستحثه الطبيب فى لهجة توجس : « نعم ؟ هات كرسيك وحدثنى .. »

– لقد أسعدنى خلال الثمانية عشر شهرا الماضية أن أكون زائرا كثير التردد على منزلك ، وأملى كبير فى أن يكون الموضوع الذى سأتكلم فيه ..

– هل الموضوع يتعلق بلوسى ؟

– نعم .. اننى يا عزيزى الدكتور مانيت أحب ابنتك حبا كبيرا ، عميقا ، مخلصا .. ولو صح أن فى الدنيا حبا صادقا متفانيا فأنا أحبها اياه !.. وأنت نفسك قد أحببت ، فدع حبك القديم ينوب عنى فى التحدث اليك !

كان الطبيب جالسا وقد أدار وجهه عن محدثه .. فلما سمع عبارات دارنى ارتسمت فى عينيه نظرة ألم عميق ، وهتف يناشده : « الا هذا يا سيدى ! لا تتحدث فى هذا الموضوع ، أرجوك ! »

وكانت صرخته كأنها صرخة صادرة عن ألم جسمانى ، وقد مد يده كما لو كان يتوسل الى دارنى أن يصمت !

•• وصمت دارنى برهة ، ثم استدرك الطبيب فى نغم خافت: « أرجو معذرتك ، فلست أشك فى حبك للوسى •• ولكن ترى هل فاتحتها فى الامر ؟ »

ـ كلا يا سيدى ، ولم أكتب اليها •• وأنت تعرف السبب : فأنا أعلم مقدار حبك لابنتك وقدرها عندك •• وأعلم أنها كانت لك منذ عودتك الى الحياة أكثر من ابنة ، أو زوجة •• كما أعلم أن حبها لك وحبك لها هما أعظم الاشياء فى حياة كليكما ••

لبث الدكتور مانيت صامتا وقد أطرق برأسه الى أسفل وتتابعت أنفاسه مسرعة ، لكنه لم يبد علامة أخرى تشى بالانفعال العنيف الذى كان يعانيه •• بينما استطرد الشاب :

ـ يا عزيزى الدكتور مانيت • لقد كنت أرى مقدار تعلق كل منكما بالآخر فكبحت جماح نفسى أطول مدة فى طاقتى •• ولكنى أحبها ، والسماء شاهدتى على أننى أحبها !

فأجاب الاب فى لهجة حزينة : « انى أصدق ذلك »

ـ لا تخش أن أفرق بينكما فيما لو أسعدنى الحظ ففزت بلوسى شريكة لحياتى •• فليس فى نيتى شىء من ذلك الآن ، ولا فى المستقبل !

ثم وضع يده على ذراع الطبيب ، وأردف : « **كلا يا سيدى ، فأنا مثلك قد شردنى من فرنسا فساد الحكم وبؤس الشعب •• وأنا مثلك أكسب عيشى هنا فى أرض أجنبية •• وكل مناى أن أشاركك حظك وحياتك وآمالك ، وأن أكون مخلصا لك حتى الموت •• فلست أريد أن أقف حائلا بينك وبين لوسى ، بل أن أضيف حبى الى ذلك الحب الذى يربط بينكما بأوثق رباط ••** »

رفع الوالد بصره عن الارض ، وقد نشب فى ذهنه صراع !••

كان فى وجه دارنى شىء أعاد اليه ذكريات مريرة ، ذكريات طالما حاول أن يطردها من مخيلته !٠٠ وأخيرا قال :

ـ انك تتكلم فى رجولة ونبل يا تشـــارلس دارنى ، واننى أشكرك على ذلك ٠٠ ولذلك سأكون صريحا فى حديثى معك : فهل لديك أى دليل يجعلك تعتقد أن لوسى تبادلك حبك ؟

ـ أبدا ٠٠ لا دليل حتى الآن

ـ هل تريد اذنا منى بالتحدث اليها ؟

ـ كلا يا سيدى ، لم يحن الوقت المناسب لذلك بعد ٠٠

ـ اذن فماذا تريد منى ؟

ـ أريد منك وعدا بأنك لو حدث واعترفت لوسى لك بحبها لى فلن تقول فى كلمة سوء ، وانما تنقل اليها ما قلته لك الساعة ٠٠ فأنا أعلم أنها لن تقبلنى زوجا لها اذا ما ارتابت فى أن ذلك سوف ينغص سعادتك !

فقال الطبيب : « أعدك بأنه اذا حدث أن صرحت لى فى أى وقت بأن لا غنى عنك لسعادتها فسوف أعطيك اياها ٠ ولن يحول دون ذلك شىء ، ولا حتى ذكرى السنوات الضـــائعة من حياتى ، والمظالم المروعة التى لحقت بى ! »

ـ أشكرك ٠٠ وان ثقتك بى لجديرة بأن أقابلها بثقة مماثلة من جانبى ٠٠ ولذلك أصرح لك بأن اسمى الحالى ولو أنه لا يختلف الا قليلا عن اسم والدتى ، الا أنه ـ كما ذكرت لك من قبل ـ ليس اسمى الحقيقى ٠٠ وأنا أريد أن أصارحك باسمى الحقيقى وبالسبب الذى من أجله أقيم فى انجلترا ٠

فقاطعه الطبيب : « صه ! لا تقل شيئا »

ـ بل اننى أريد أن أكاشفك بذلك حتى أنال ثقتك وحتى لا يكون ثمة سر أخفيه عنك ٠٠

ـ كفى ! لا أريد أن أسمع شيئا ! قل لى ما تشاء عندما أطلب منك وليس الآن ٠٠ فأذا وفقت الى الفوز بأمنيتك ، وأحبتـــك

لوسى ، فعندئذ يمكنك أن تصارحنى بما عندك فى صبيحة يوم زواجك ٠٠ فهل تعدنى بذلك ؟

ـ بكل سرور

ـ هات اذن يدك ٠٠ والآن ، لقد حان موعد عودة لوسى الى البيت ويحسن ألا ترانا معا الليلة ٠ فاذهب ! وليباركك الله !

وكان الظلام قد هبط حينما تركه دارنى ، وبعد برهة عادت لوسى الى المنزل فهرعت الى الغرفة بمفردهـــا ـ اذ كانت مس بروس قد صعدت الى الطابق العلوى ـ وكم كانت دهشتها حين رأت المقعد الطويل خاليا من أبيها !٠٠ فصاحت جزعة : « أبى! ٠٠ أين أنت ؟ »

لكن أحدا لم يجبها ، وانما سمعت طرقا خفيفا صـــادرا من مخدعه ٠٠ فاتجهت اليه فى هدوء وأطلت من الباب ٠٠ واذ ذاك عادت مفزوعة تحدث نفسها صارخة فى رعب شديد : « ماذا أفعل ؟٠ ماذا أفعل ؟! »

لكن ترددها لم يطل غير لحظة يسيرة ، استدارت بعدها الى غرفته مرة أخرى وطرقت الباب فى رفق ، ثم نادته بصوت رقيق ٠٠ فتوقف الطرق لدى سماع صوتها ، ثم خرج اليها الوالد فراحا يذرعان المكان جيئة وذهابا فترة طويلـــة ، وهى تحدثه وتسامره فى هدوء ودعة ٠٠

وأثناء الليل نهضت فى سكون فتأملته مليا وهو نائم ٠ كان مستغرقا فى نوم عميق ٠٠ وكانت كل أدوات صناعة الاحذية والاجزاء القديمة التى لم تتم ، فى مكانها المـــألوف ، فتنفست الصعداء وعادت الى غرفتها وهى تلهج بالشكر لله ٠٠

الفصـل التاسع

كارتون يحذو حذوه

◆ **فى** نفس الليلة ـ أو بالاحرى فى نفس الصباح ـ قال سترايفر يخاطب مساعده : « سيدنى ·· امزج لى قدحا آخر من الشراب ، فعندى ما أقوله لك ! »

كان سيدنى قد أنفق عدة ليال يعمل عملا متواصلا فى تصفية أوراق مكتب سترايفر ، لمناسبة اغلاق المحاكم حتى شهر نوفمبر · وقد انتهى سيدنى من مهمته أخيرا ، لكنه خرج منها مرهقا ·· وأردف سترايفر يحدثه : « **والآن ، اسمع ·· سأخبرك بشىء سيكون مفاجأة لك : لقد اعتزمت أن أتزوج !** »

ـ يا للسماء ! وهل أعرفها ؟

ـ خمن !!

ـ لن أخمن فى الساعة الخامسة صباحا !·· لن يقوى عقلى على ذلك ··

ـ حسنا ، اذن فسأصارحك بالامر ـ اذا كان فى مقدورى أن أجعلك تفهم !·· أنت تعلم اننى رجل أكثر منك رقة ·· رجل يحرص على أن يجعل نفسه أكثر ·· أكثر ··

ـ فلنقل : أكثر ايناسا

ـ بالضبط ·· أكثر ايناسا فى حضرة النساء !·· ولقد ترددت أنت على بيت الدكتور مانيت مثلما ترددت أنا ، فكنت أخجل من مسلكك السىء · انك شخص لا يعرف فن الايناس يا سيدنى !

فأخذ سيدنى جرعة من كأسه وضحك ·· بينما أردف سترايفر : « اصغ الى · اننى ـ بحكم كونى رجلا ناجحا ـ أقل

منك حاجة الى التلطف مع الناس ٠٠ فلماذا أحرص مع ذلك على أن أكون لطيفا ؟ أفعل ذلك لان الحكمة تقتضيه ٠٠ وهكذا أشق طريقى فى الحياة !

ـ حسنا ٠ ومن هى المرأة التى اخترتها ؟

ـ انها مس مانيت ٠٠ فما رأيك ، هل تقرنى على هذا الاختيار ؟

فقال سيدنى : « ولم لا أقرك ؟ »

ـ **انك تتقبل الامر ببساطة أكثر مما كنت أتوقع ٠ والواقع يا سيدنى اننى مللت هذا اللون من الحياة بلا شريك يبدد تشابه الايام الرتيب ٠٠ وقد بدأت أشعر بمبلغ المتعة التى يجدها الرجل فى أن يكون له بيت يأوى اليه حين يطيب له أن يأوى ، ويخرج منه حين يطيب له أن يخرج** ٠ ثم اننى أعتقد أن مس مانيت تناسبنى ، فهى مخلوقة جذابة ، فى وسعها أن تكفل لى الاستمتاع بحياتى ٠٠ وهى من الناحية الاخرى سوف تجد فى الآن رجلا واسع الثراء ، يرتقى سلم النجاح بسرعة واضطراد ٠٠ وبهذه المناسبة ، لم لا تتزوج أنت ؟ انك لا بد أن تمرض يوما ، وعندئذ سوف تحتاج الى من تعتنى بك !

فقال سيدنى : « سأفكر فى الامر ٠٠ »

❖

◆ **واذ** استقر رأى سترايفر على الزواج ، فقد رأى أن خير البر عاجله ، وانه من الاصوب أن يبدأ عطلته بزيارة مس مانيت ومكاشفتها بما يدور فى خاطره ٠٠ وكان الطريق الى بيتها يمر بمصرف (تلسون) ، ففكر فى الدخول لمقابلة مستر لورى ، الذى كان يعلم انه صديق حميم لاسرة مانيت ، كى يحدثه عن المشروع الذى يعده لمستقبله السعيد !

وابتدره محييا بصوت مرتفع : « هالو ٠٠ كيف حالك ؟ » ٠٠ فأجابه لورى فى صوت هادىء ، آملا أن يجاريه محدثه فيه : « أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك ؟ »

فقال سترايفر وهو يتكىء على مكتب صاحبه : « أوه ، انها مسألة خاصة . لقد اعتزمت أن أتقدم للزواج من صديقتك الصغيرة اللطيفة مس مانيت »

فهتف لورى وهو يحك ذقنه وينظر الى زائره نظرة ارتياب : « آه ، حقا !؟ »

فكرر سترايفر صيحته متسائلا : « آه ، حقا يا سيدى .. ماذا تعنى ؟ »

ـ ان ما أعنيه شيء ودى ولا شك . ولكن .. الحقيقة .. انك تعلم يا مستر سترايفر ..

لكنه لم يكمل عبارته ، وانما صمت وهز رأسه ..

ـ ماذا تريد أن تقول يا سيدى ؟ هل أنا شخص غير مناسب؟ ألست غنيا ؟ ألست رجلا ناجحا ؟

ـ أوه ، لا يستطيع أحد أن يشك فى ذلك !

ـ اذن فماذا تعنى بربك ؟

ـ الواقع ، اننى ... هل أنت ذاهب الى هناك الآن ؟

فأجاب سترايفر وهو يضرب المنضدة بيده : « مباشرة ! »

ـ لو كنت مكانك لما ذهبت ..

ـ لماذا ؟ أوضح السبب !

ـ ما كنت لاذهب بغير أن يكون لدى سبب قوى للاعتقاد بأننى سأنجح فى مهمتى ..

فصاح سترايفر غاضبا فى حدة : « لقد ذكرت لك منذ لحظة ثلاثة أسباب قوية تبرر النجاح ! »

ـ اننى عندما أقول النجاح ، فانما أعنى النجاح مع الفتاة نفسها ..

فقال سترايفر وهو يطلق ضحكة غضب : « اذن فأنت تنصحنى بعدم الذهاب ؟ »

ـ كنت على وشك أن أقول لك انك قد تتألم اذا تبينت أنك كنت مخطئا فى فهم شعورها ٠٠ كما ان الدكتور مانيت بدوره قد يجد من المؤلم أن يصارحك بالحقيقة ٠٠ وكذلك قد تتحرج مس مانيت نفسها من الادلاء برأيها !٠٠ أفلا ترى من الافضل أن أحاول أنا مثلا استطلاع حقيقة شعورها ، قبل أن تذهب ؟ »

ـ حسنا جدا ٠٠ ولتنبئنى بالنتيجة فى أقرب فرصة ٠ طاب يومك »

واندفع خارجا من المصرف ، وقد اعتزم أن يجد حلا للموقف دون أن يظهر مبالاة بالامر !

❖

◆ **وبالفعل** ، عند ما زار مستر لورى صاحبه سترايفر فى ذلك المساء ، بدا على الاخير كأنه نسى الموضوع من أساسه ٠٠ لكن لورى ابتدره قائلا : « لقد كنت فى زيارة الاسرة ، ولست أشك فى أنى كنت محقا فى نقاشى معك هذا الصباح ٠٠ فما أظنك ستنجح مع الآنسة مانيت ! ٠٠ »

فأجاب سترايفر : « **انى أرثى لهما ٠٠ فلننس الامر كله ٠٠ فما داما مجردين من الادراك السليم الى هذا الحد ، فخير لى أن أنسحب ٠ والواقع ان الفتيات كن حمقاوات منذ القدم !٠٠ على أى حال لم يصبنى ضرر، فأنا لم أفاتح الفتاة يوما فى أمر الزواج، وأعترف لك انى لست واثقا من أننى كنت سأقدم على الزواج منها بالفعل ٠٠ فشكرا جزيلا لك على ما تكبدت من مشقة** »

دهش مستر لورى لسماع هذا الكلام الى درجة انه وجد نفسه خارج البيت قبل أن يستطيع جمع شتات أفكاره ٠٠ ثم سار ميمما شطر بيته وهو يسائل نفسه عن حقيقة شعور مستر سترايفر !

وحين التقى سترايفر بسيدنى كارتون فى المرة التالية ذكر له أنه قد أعاد النظر فى أمر الزواج ، فانتهى الى العدول عنه ! ٠٠ وبعد أيام سافر ليقضى فترة من عطلته فى « ديفونشاير » ٠٠

❖

◆ **أما** سيدنى فقد بقى فى لندن ·· وذات يوم توجه لزيارة لوسى مانيت ، التى لم تكن قد أنست يوما اليـــه أو أحست بالارتياح فى مجلسه ·· فلم تكد تتطلع الى وجهه حتى قالت : « أخشى أن تكون مريضا يا مستر كارتون !؟ »

– كلا ·· كل ما فى الامر ان الحياة التى أحياها ليست حياة صحية ··

– اغفر لى تطفلى ، ولكن أليس مما يؤسف له حقا أن لا تحيا حياة أفضل ؟

واذ نظرت اليه مرة أخرى ، أدهشها وأحزنهـــا أن ترى فى عينيه ·· دموعا ! كما كانت فى صوته أيضا دموع وهو يجيبها : « لقد فات أوان اصلاح الحال ، ولن أكون يوما خيرا مما أنا ·· بل انى سأنحدر كل يوم الى أسفل فأسفل ·· »

وغطى وجهه بيـــديه ·· لم تكن لوسى قد رأته يوما مرهف الاحساس ، فتأثرت لحاله أعمق التأثر · أما هو فلم يلبث أن استطرد : « اغفرى لى يا مس مانيت · فان ما أريد أن أقوله لك يسبب لى اضطرابا شديدا · فهلا أصغيت الى ؟ »

– بكل سرور ، اذا كان هذا يسعدك يا مستر كارتون ··

– فليباركك الله يا مس مانيت · لا تخشى من الاصغاء الى ، فاننى أشبه بشخص مات فى شبابه !·· والواقع أن حياتى كلها كانت خليقة بأن تكون أفضل ، لكن أوان ذلك قد فات ··

– كلا يا مستر كارتون ! أنا واثقة ان المستقبل قد يكون ما يزال يطوى صفحته على النصيب الافضل من حياتك !

وكانت ترتجف وهى تتكلم ، وقد شحب وجهها أشدالشحوب ·· فقال كارتون : « حتى لو أمكنك يا مس مانيت أن تبادلينى حبى ، فلن أجلب عليك غير البؤس والاسى ، وسأجذبك معى

الى حضيض الشقاء ٠٠ لكنى أعلم جيدا انك لا تضمرين لى أدنى ميل ، ولست أسألك شيئا من ذلك ٠٠ بل انى لاشكر الله الذى جعل مثل هذا الميل مستحيلا ! »

ـ وهل لا أستطيع أن أنقذك بغير هذا الميل يا مستر كارتون؟

ـ كلا ، بل ان أقصى ما تستطيعين أن تفعليه من أجلى هو أن تصغى الى ٠٠ أريدك أن تعلمي أنك غاية منى روحى وأحلامى ٠٠ وأن رؤياك مع والدك ، ورؤية هـــذا البيت الذى يبـــدو فى كل ركن منه طابع يديك ، قد أيقظ فى أعماقى أطيافا قديمة كنت أحسبها قد ماتت !٠٠ فمنذ عرفتك أمضنى الاسى عـــلى حياتى الكئيبة الموحشة ، حتى لقد فكرت أن أبدأ حياتى من جديد ٠ انها أضغاث أحلام ! لكنى أريدك أن تعلمى أنك الموحية بهـــا ٠٠

ـ ألا أمل فى أن يبقى من هذه الاحلام شىء ؟ أوه ، بربك كرر المحاولة يا مستر كارتون !

ـ كلا ، لا فائدة ٠٠ فقط دعينى أحمل ـ خلال ما بقى من حياتى التعسة ـ ذكرى اننى فتحت قلبى لك دون البشر جميعا ٠٠ فهلا وعدتني بما يطمئننى ـ كلما عاودتنى ذكرى هذا اليوم ـ الى أن سرى يرقد مصونا فى قلبك ، لا يشاركك فيه انسان !؟

ـ اذا كان هذا يريحك ٠٠ أعدك !

ـ أشكرك ٠٠ ومرة أخرى ، أسأل الله أن يباركك

ورفع يدها الى شفتيه فلثمها ٠٠ ثم اتجه الى الباب وهو يقول:

« ٠٠ ولتثقى اننى لن أخوض فى هذا الموضوع مرة أخرى ٠٠ وحسبى عزاء اننى عندما يحضرنى الموت سأتذكر أن اعترافى الاخير كان اليك ! »

وكان بادى التغير عن طبيعته المألوفة ، بحيث عز على لوسى أن تفكر فى مبلغ ما تبدد من أحلامه ٠٠ فبكت وهو يتطلع الى الخلف ليلقى عليها نظرة أخيرة !

ـ لا تبكى ، فلست أستحق منك هذا الشعور النبيل ٠٠ ولن تمضى ساعة أو ساعتان حتى أعود ثانية الى صحبة رفاقى ذوى النفوس الوضيعة ٠ **ولكن قبل أن أنصرف ، لى عندك رجاء أخير ٠٠ أعلم أن لا جدوى من مصارحتك به ، لكنه ينبثق من أعماق روحى ، وهو اننى دائما على استعداد لان أفعل أى شىء من أجلك ومن أجل أى شـــخص من أعزائك ٠٠ لن أحجم عن تضحية ما كى أساعدك وكل من تحبين ٠٠ ولتذكرى على الدوام، فى الايام السعيدة المقبلة عليك ، أن هناك رجلا لن يتردد فى أن يبذل حياته راضيا كى يحفظ لك حياة شخص تؤثرينه بحبك !**

ثم أردف : « ٠٠ والآن ، وداعا ٠٠ وليبـــاركك الله » ٠٠ وتركها وانصرف

الفصل العاشر

عامل الطرق

◆ **لبث** أهالى حى « سان انطوان » أياما ينتظرون أنباء عن مصير صديق لهم ، هو المدعو « جاسبار » • وكان رجال البوليس قد ألقوا القبض عليه وأخذوه الى حيث زجوا به فى سجن القرية التى ارتكب فيها جريمته (قتل المركيز) •• وذات يوم كان القوم يرتقبون عودة مسيو ديفارج ليقفوا منه على الاخبار ، وقد انتظر بعضهم فى الحانة لهذا الغرض ساعات طويلة •• بينما كانت مدام ديفارج جالسة فى هدوء وصمت ، تشتغل بالابرة !

وأخيرا ، قرب الظهر ، أقبل عبر الطريق شخصان مغبرا الثياب : كان أحدهما صاحب الحانة ، والآخر عامل من المشتغلين بتعبيد الطرق ، يضع على رأسه قلنسوة زرقاء • وبرغم أن عيونا كثيرة رأتهما ، لكن أحدا لم يتبعهما وهما يمران ، أو ينطق بكلمة وهما يدخلان الحانة •• وان اتجهت اليهما جميع الانظار !

وقال مسيو ديفارج : « طاب يومكم أيها الرفاق » •• وللحال فك عقال كل لسان وانطلقت من الجميع صيحة واحدة تجيبه : « طاب يومك »

◆ **وأردف ديفارج وهو يهز رأسه : « الجو سيء يا رفاق ! » وهنا نظر كل شخص الى جاره ، ثم أطرق الجميع الى الارض ولاذوا بالصمت •• بينما نهض أحدهم فانصرف !**

وقال ديفارج يخاطب زوجته : « لقد قطعت مسافة طويلة مع هذا الرجل الطيب من عمال الطرق • انه رفيق مخلص ، يدعى **(جاك)** •• فقدمى له شيئا من الشراب »

وهنا نهض رجل آخر فانصرف !•• ووضعت مدام ديفارج

قدح الخمر أمام معبد الطرق المدعو (جاك) ، الذى خلع قلنسوته تحية للجماعة ثم شرب نخبهم ٠٠ وعندئذ نهض ثالث وانصرف !

وأنعش مسيو ديفارج نفسه هو الآخر بشىء من الخمر ، دون أن تبدر منه نظرة الى أحد من الحاضرين ، أو ينظر أحد منهم اليه ٠٠ ولا حتى مدام ديفارج ، التى تناولت شغل الابرة من جديد وانهمكت فيه !

وبعد برهة سأل صاحب الحانة رفيقه : « هل فرغت يا صديقى ؟ » ٠٠ واذ أجابه شاكرا بالايجاب ، استطرد ديفارج: « هيا بنا اذن ، كى أريك الغرفة التى أعددتها لك ، والتى ستجدها مناسبة للغاية »

وخرجا من الحانة الى الفناء ، ثم صعدا السلم الصعبة الارتقاء الى غرفة ضيقة ، نفس الغرفة التى جلس فيها يوما كهل أشيب الشعر ، يصنع الاحذية ٠٠

لكن الغرفة لم يكن بها الآن كهل أشيب الشعر ، وانما كان بها ثلاثة رجال ـ نفس الثلاثة الذين نظروا يوما من ثقب الباب الى ذلك الكهل ، ونفس الثلاثة الذين تسللوا من الحانة منذ برهة كل على انفراد : الثلاثة الذين يدعى كل منهم (جاك) !

وأغلق ديفارج الباب بعناية وقال هامسا : « أيها الرفاق ، جاك رقم (١) وجاك رقم (٢) وجاك رقم (٣) ، اليكم الشاهد الذى التقيت به أنا جاك رقم (٤) ، طبقا للاوامر الصادرة الى ٠ وهو سيخبركم بكل شىء ٠٠ تكلم يا جاك رقم (٥) ! »

مسح عامل الطرق وجهه بقلنسوته الزرقاء ، وتساءل : « من أين أبدأ يا سيدى ؟ »

ـ ابدأ من البداية .

ـ رأيت (جاسبار) لاول مرة منذ نحو عام ، وكان متعلقا بالسلسلة فى أسفل عربة المركيز ، وكانت العربة تصعد تلا صعب المرتقى ٠٠

فقاطعه جاك رقم (٣) : « كيف تعرفت عليه فيما بعد ؟! »

ـ من قامته الطويلة .. حتى اننى عندما سألنى المركيز عن شكله ، أجبته بأنه « طويل كالشبح ! »

فعلق جاك رقم (٣) : « كان ينبغى أن تصفه بأنه قصير ! »

ـ انه فى ذلك الوقت لم يكن قد ارتكب شيئا !.. ما علينا ، لقد فر يومئذ .. ثم ارتكبت الجريمة .. واختفى عن الانظار ! .. بحثوا عنه فى كل مكان ، كم شهرا : عشرة ، أحد عشر ؟

فقاطعه ديفارج : « دعنا من ذلك .. من سوء الحظ أنه قبض عليه أخيرا . استمر .. »

ـ وعدت الى عملى فى سفح التل .. وذات يوم رأيت ستة من الجنود مقبلين ، وفى وسطهم رجل مديد القامة موثق اليدين الى جنبيه . وكانوا جميعا مغبرى الثياب ، وأثناء مرورهم تعرفت على الرجل الطويل ـ الذى كان عاجزا فى هذه المرة عن الفرار الى أسفل التل ـ **وكان قائد القوة يقول لجنوده : « هيا ، سوقوه سريعا الى قبره » ، وعندئذ دفعوه نحو أسفل التل فى الطريق الى القرية ، فسقط على وجهه .. وحين أعانوه على النهوض ضحكوا اذ رأوا وجهه ملطخا كله بالدم ، الذى لم يسمح له وثاقه حتى بأن يمسحه .. ثم جاءوا به الى القرية ، فخرج أهلها جميعا ليتفرجوا عليه وحراسه يسوقونه خلال شوارعها ، مارين بالطاحونة ، ومنها الى السجن .. وهناك تنحت بوابات السجن وابتلعته ، هكذا ..**

وفتح الراوى فمه بأوسع ما استطاع ثم أغلقه دفعة واحدة .. بينما قال ديفارج يستحثه : « استمر ، يا جاك رقم (٥) »

ـ وتهامس أهل القرية بجوار النبع فترة ، ثم تفرقوا جميعا ليناموا . وفى نومهم حلموا بالرجل التعس القابع هناك وراء القبضان ، والذى لن يخرج من سجنه الا الى قبره !.. وفى الصباح لمحوه وراء نافذة زنزانة ضيقة فى أعلى السجن ، يطل من خلف قضبانها الحديدية على الخلاء الذى لن يطأ أرضه مرة ثانية !

تبادل المستمعون الاربعة نظرات عابسة ، وقد ارتسمت الرغبة فى الانتقام واضحة على كل وجه ، وان بدت عليهم وهم يصغون الى عامل الطرق سمات قضاة فى محكمة من محاكم العدالة :

ـ وبقى الرجل هناك سبعة أيام ، والقرية كلها تتطلع اليه ولكن فى الخفاء ـ خوفا من السلطات ـ وكل مساء ، عند اجتماع أهل القرية بجوار النبع ، كانت الانظار جميعـــا ترتفع الى نافذة السجن ، وتكثر بين القوم الاقاويل والتكهنات عن مصير السجين ٠٠ حتى لقد قال البعض انه لن يعدم ، لان أحدهم رفع الى الملك التماسا يقول فيه ان الرجل قد جن عـلى أثر مصرع طفله تحت عجلات عربة المركيز !

فقال جاك رقم (١) يقاطع الراوى : « هذا صحيح ، فقد قدم الالتماس الى الملك بالفعـــل ٠ وكلنا ـ ما عداك ـ رأينا الملك يتسلمه فى عربته أثناء مروره بها فى الطريق ، وقد جلس فيها بجوار الملكة ٠٠ وقد كان ديفارج ، هذا ، الذى خاطر بحياته فانطلق يعدو أمام الجياد ملوحا بالالتماس فى يده ! »

وأضاف جاك رقم (٣) : « ٠٠ وكلنا نعلم كذلك أن حراس الملك أحاطوا به وأوسعوه ضربا ! »

وقال ديفارج يخاطب الراوى : « استمر » ٠٠ فاستطرد هذا : « وفى صبيحة الاثنين استيقظت القرية لترى مشنقة ارتفاعها أربعون قدما قد نصبت بجوار النبع ! » ٠٠ وأشار المتحـــدث باصبعه كأنما ليعبر عن مدى ارتفاع المشنقة ، ثم مضى فى قصته: « وتوقفت كل الاعمال فى القرية ، فلم يخرج أحد أبقـاره من حظائرها ، وانما تجمع الاهالى كلهم بجوار النبع ٠ **وعند الظهر سمعت دقات طبول ، وجىء بالسجين من سجنه وقد أحاطت به ثلة من الحراس ٠ وكان موثقا كالعادة ، وفى فمه قطعـــة من القماش كى تمنعه من الكلام ٠٠ وهكذا ، دون أن ينطق بكلمة ، شنقوه هناك ، ثم تركوه معلقا فى الهواء على ارتفاع أربعين قدما !**

كان المنظر مخيفا .. ولا أدرى كيف جرؤت النسوة يومئذ على أن يستقين ماء من النبع ، وكيف استطاع الاطفـــال أن يلعبوا بجواره وذلك الشيء المعلق فوقهم يلقى ظلاله على المكان !؟

« كان المنظر مخيفا حقا .. وفيما أنا أغادر القرية مســاء الاثنين ، تلفت الى الخلف فرأيت ظل المشنقة الطويل يترامى على بناء الكنيسة ، والطاحونة ، بل ويصل الى السجن أيضا ! .. ثم التقيت بهذا السيد ـ كما أرشدت من قبل ـ وحضرنا سويا ، نمشى آنا ونركب آنا ، طيلة يوم وليلة أمس .. وها أنذا بينكم »

وبعد فترة صمت طويلة قال جاك رقم (١) : « حسنا جدا ، انك قد تصرفت وتحدثت باخلاص .. فهل لك أن تنتظرنا قليلا خارج الغرفة ؟ » ... فأجاب عامل الطرق : « بكل سرور » واذ ذاك نهض ديفارج فرافقه الى قمة السلم ثم عاد الى رفاقه . وهنا قال رقم (١) : « مارأيك فيهذا يا جاك؟ هل ندرجهم فيالقائمة؟»

فأجابه ديفارج : « فى قائمة الهلاك ؟.. نعم »

فتساءل الاول : « أعنى هل نضع فى القائمة القصر وكل أسرة افريموند ؟ »

فأجاب ديفارج مؤمنا : « القصر وكل الاسرة ! »

وعاد رقم (١) يقول : « هل أنت واثق أن القائمة فى أمان ؟ صحيح أنها مكتوبة بشفرة سرية لا يستطيع فهمها غيرنا ، ولكن ماذا لو قبض علينا مثلا ؟ هل تستطيع زوجتك أن تقرأها عند اللزوم ؟ » .. فأجابه ديفارج فى لهجة الثقة : « **لا تخش شيئا يا جاك ، فليست زوجتى فى حاجة الى القائمة . وانما يكفى أن يدرج فيها اسم ما ، كي يسجل هذا الاسم فى ذاكرة زوجتى ! انها تظل تكرر الاسم لنفسها وهى تنسج بالابرة ، وتنسج كل اسم فى ذاكرتها .. وما من حرف من اسم سوف يفلت من قائمة مدام ديفارج المحبوكة !** »

غمغم الجميع بكلمات الاستحسان ، وسأل أحدهم : « وماذا

بشأن عامل الطرق ؟ هل ينبغى اعادته توا ؟ انه ساذج للغاية ، أفلا يكون مصدرا للخطر ؟ » ٠٠ فأجاب ديفارج : « انه لا يعلم شيئا ، وسأتولى أمره ٠ انه يتوق الى رؤية عالم المترفين ، والملك ، والملكة ، والبلاط ٠٠ وسوف يراهم يوم الاحد ، وبعد ذلك أعيده من حيث أتى ! »

ــ ماذا ! أمن الحكمة أن ندعه يرى الملك والنبلاء ؟

ــ جاك ٠٠ اذا أنت أريت القط لبنا ، اشتاق الى أن يشربه٠٠ واذا أريت الكلب أرنبا ، فسيأتى يوم يصطاده فيه ويقتله !

وعند هذا انفض عقد المجتمعين ، وتفرق كل الى سبيله ٠٠

❊

◆ بقى عامل الطرق أياما نزيل الحانة ٠ وكانت حياته فيها جديدة وشائقة ، وان كانت مدام ديفارج قد أفزعته ! كانت دائما صامتة ، دائما تشتغل بالابرة ، ولم تلق بالا الى وجوده٠٠ وكان كلما نظر اليها ارتجفت أوصاله ٠ وكم أفسد عليه نشوة يوم الاحد الموعود أن علم أنها ستصحبه الى جانب زوجها فى الرحلة الى (فرساى) ، حيث مقر الملك ٠٠

وكالعادة ، أخذت مدام ديفارج معها شغل الإبرة ، وانهمكت فيه حتى فى العربة العامة التى حملتهم الى هناك ٠٠ ولفت ذلك انتباه أحد المسافرين فقال لها : « انك تعملين جادة يا سيدتى!»

فأجابته : « نعم ، فلدى قدر كبير يجب أن أنجزه »

ــ وما هذا الذى تنسجين يا سيدتى ؟

ــ أشياء كثيرة ٠٠

ــ مثلا ؟

ــ أكفان للموتى مثلا ٠٠

انكمش الرجل فى مقعده وابتعد عنها بقدر ما وسعه ٠ واضطرب عامل الطرق بدوره لدى سماعه كلماتها ٠٠ لكنه لم يلبث أن نسى كل شىء حين وقع بصره على الملك والملكة الشقراء

فى عربتهما الذهبية ، يحف بهما رجال القصر ووصيفات البلاط ٠٠ ذلك الحشد من النساء الضاحكات والسادة المترفين ٠٠ وتلك الحلى والجواهر المتألقة ، وهذا الحرير والديباج اللامع ، والوجوه الابية المترفعة !٠٠ كل ذلك أنسى عامل الطرق نفسه ، فرفع قلنسوته ولوح بها هاتفا بأعلى صوته : « عاش الملك ٠٠ عاشت الملكة »

وحين انتهى مرور الموكب قال له ديفارج : « ها ! يا لك من رجل طيب » ٠٠ فبدأ عامل الطرق يسائل نفسه عما اذا كان قد ارتكب حماقة ؟ ولكن كلا ، فقد همس ديفارج فى أذنه : **« انك بالضبط الرجل الذى يلزمنا ، فأنت تدخل فى روع هؤلاء الحمقى أن سلطانهم سيدوم الى الابد ٠٠ وهكذا تغدو مهمتنا أكثر سهولة ! »**

وهز عامل الطرق رأسه موافقا ٠٠ بينما استطرد ديفارج : « ان هؤلاء الاغبياء غافلون عن كل شىء ٠٠ انهم يحتقرونك ويفكرون فى جيادهم وكلابهم أكثر مما يفكرون فيك ٠٠ فلنمض فى خداعهم فترة أخرى ، وسيأتى يومنا ! » ونظرت مدام ديفارج الى عامل الطرق فى برود ، وقالت : « اصغ الى يا هذا ٠٠ لو عرض عليك سرب من الطيور العاجزة عن الطيران ، وقيل لك أن تنتزع ريشها كى تنتفع به ، أفلا تبدأ بانتزاع أجمل الريش أولا ؟ »

ـ بلى يا سيدتى ، بلا شك ٠٠

وعندئذ أردفت مدام ديفارج وهى تلوح بيدها فى الاتجاه الذى سلكه الموكب الملكى : « لقد رأيت طيورا جميلة اليوم ٠٠ والآن ، انصرف الى بيتك »

الفصل الحادى عشر

الجاسوس

◆ **وفيما** كان ديفارج وزوجته عائدين الى حانتهما عبر الشوارع الغارقة فى الوحل الاسود ، قالت مدام ديفارج لزوجها: « ماذا قال لك جندى البوليس جاك ؟ »

– لم يقل لى شيئا يذكر الليلة ·· لكنه قال ان هناك جاسوسا جديدا فى طريقه الى هذا الحى !

– أوه ، حسنا ! اذن فينبغى أن نضيفه الى القائمة ·· وما اسمه ؟

– جون بارساد ·· وهو انجليزى

– عظيم · وهل عرف شىء عن شكله ؟

– ان سنه تدور حول الاربعين ، وطوله حوالى خمسة أقدام وتسع بوصات ، وشعره أسود ، وهو ذو وجه نحيل طويل ، وأنف معوج الى اليسار !

– انها أوصاف مميزة ·· سأضيفه الى القائمة

وبلغا الحانة فى منتصف الليل ·· فبدأت مدام ديفارج باحصاء النقود التى أنفقت فى غيابهما ، بينما راح زوجها يذرع المكان جيئة وذهابا وهو يدخن غليونه · ورغم انهماكها فى عد النقود فانها لاحظت أنه بدا متعبا ومكتئبا ، فابتدرته : « انك الليلة واهن النفس »

فأجابها : « قليلا ·· ان الطريق أمامنا طويل ! » ·· فأمنت على قوله فى هدوء : « **نعم ، ان الطريق طويل ·· لكن الانتقام يلزم لاعداده وقت طويل ، فعلينا أن نتذرع بالصبر · ولنذكر أن كل يوم يمر يدنينا من الانتقام ·· فانظر حولك الى الفساد والتذمر المستشريين فى أنحاء البلاد · أتعتقد أنهما يمكن يدوما ؟ »**

ـ انك على حق ، ولكن قد لاتحين ساعة الخلاص فى عهدنا ٠٠
ـ حتى لو حدث ذلك فاننا نكون قد ساهمنا فى تقريبها ٠ وما من شىء نفعله يذهب سدى ٠٠ لكننى شخصيا أعتقد أننا سنعيش حتى نرى النصر

❖

◆ **وعند** ظهر اليوم التالى كانت مدام ديفارج جالسة فى ركنها المعتاد تشتغل بالابرة ، حين دخل الحانة رجل غريب ٠٠ فلم تكد تلمحه حتى غرست وردة فى شعرها ، وللحال توقفت أكثر الاحاديث فى الحانة ٠٠ وأخذ الجالسون فيها يتسللون منها واحدا بعد الآخر !

وقال الغريب : « طاب يومك يا سيدتى » ٠٠ فأجابته : « طاب يومك يا سيدى » ، ثم أضافت فى سرها : « ها ! السن حوالى الاربعين ، والطول خمسة أقدام وتسع بوصات ، والشعر أسود، والوجه طويل نحيل ، والانف معوج الى اليسار ٠٠ طاب يومك! »

وبعد أن طلب الغريب قدحا من الخمر قال للمرأة : « انك تشتغلين بالابرة بمهارة كبيرة يا سيدتى ! »

ـ بحكم العادة

ـ ولماذا تتكلفين هذه المشقة ؟

ـ لقتل الوقت

ـ وهل أحوال العمل على ما يرام ؟

ـ بل انها سيئة للغاية ، فالناس جميعا يشكون الفقر

ـ آه ، يا للمساكين ٠٠ انهم يعاملون أسوأ معاملة ، كما تقولين

فقاطعته مصححة : « بل كما تقول أنت ! »

ـ عفوا ، لقد كنت أنا الذى قد قلت ذلك ، ولكن لا شك أن هذا رأيك ٠٠

فانبرت له المرأة محتجة : « رأيى ؟ اننى وزوجى لدينا مايكفينا من مشاغل ادارة هذه الحانة ، بحيث لا يتسع وقتنا لاى تفكير فيما عدا ذلك . كل ما نفكر فيه هو كيف نعيش .. »

لكن الجاسوس الذى جاء ليجمع أية معلومات يستطيع الحصول عليها ، لم يدع خيبة أمله تظهر على وجهه ، وانما استطرد مثابرا: « لقد كانت نهاية سيئة ، نهاية جاسبار المسكين ! » .. فقالت المرأة فى هدوء : « اذا كان الناس يلجأون الى المدى فى مثل هذه الاحوال ، فعليهم أن يدفعوا الثمن »

فقال الجاسوس وهو يخفض صوته : « أعتقد أن أهل هـذا الحى قد فاضت قلوبهم بالشفقة على ذلك المسكين ، وأحنقهم اعدامه ! »

ـ حقا ؟ آه ! هذا زوجى مقبل ..

وقال الجاسوس للقادم وهو يلمس قبعته محييا : « طـاب

يومك يا جاك ! » ٠٠ فتوقف ديفارج فجأة وحـــدجه بنظرة فاحصة ٠ لكن الجاسوس كرر عبارته : « طاب يومك يا جاك ! » ٠٠ وعندئذ أجابه صاحب الحانة : « انك مخطىء ، فليس هذا اسمى ٠ اننى أدعى ارنست ديفارج »

فقال الجاسوس وقد خاب فأله مرة أخرى : « سيان ، طاب يومك ! » ٠٠ فأجابه ديفارج فى هدوء : « طاب يومك ! » ٠٠ لكن الجاسوس واصل محاولاته : « كنت أقول للسيدة ان أهل الحى تفيض نفوسهم شفقة وحنقا من أجل جاسبار المسكين » ٠٠ فأجاب ديفارج فى ثبات : « لم أسمع شيئا من هذا القبيل ٠٠ ولا أعلم شيئا عنه »

واذ فرغ الجاسوس من احتساء قدحه ، طلب قدحا آخر ٠٠ واستطرد : « ان اسمك يا مسيو ديفارج يذكرنى بسيدك القديم الدكتور مانيت ٠ أحسبه حين أطلق سراحه لجأ اليك ؟ »

ـ هذا صحيح

ـ لقد عرفت دكتور مانيت وابنته فى انجلترا . هل لديك أنباء عنهم هذه الايام ؟

ـ كلا

ـ ان الفتاة على وشك الزواج ، ولكن من رجل غير انجليزى .. وعلى ذكر جاسبار المسكين ، من الغريب انها ستتزوج من ابن أخى المركيز الذى قتله جاسبار !.. وقد ورث الشاب بالطبع ثروة ولقب عمه القتيل. لكنه يعيش مجهولا فى انجلترا، متجردا من لقبه ، مطلقا على نفسه اسم تشارلس دارنى ـ الذى حرفه من أسرة أمه المعروفة ب « دولنى »

لم يبد على مدام ديفارج أدنى اهتمام بهذه الانباء ، وان بدا ذلك على زوجها ، الذى برغم محاولته التظاهر بالهدوء التام ، عجز عن منع يده من الارتعاش وهو يشعل غليونه .. وما كانت دلالة هذه الحركة لتخفى على عين جاسوس محترف !

واذ أحرز بارساد على الاقل هذا النصر الوحيد المتواضع ، دفع ثمن شرابه وغادر الحانة .. لكن الزوجين بقيا عدة دقائق فى نفس الوضع الذى تركهم عليه، خشية أن يعود ثانية !.. وأخيرا قال ديفارج بصوت خفيض : « أيمكن أن يكون قوله صحيحا ؟ » .. فأجابته زوجته : « ما دام هو الذى قاله فقد يكون النبأ مكذوبا .. ولكن يحتمل أن يصدق ! »

ـ ان صح النبأ ، وجاءت النهاية فى أيامنا ، فاني أرجو أن يبقى القدر زوجها بعيدا عن فرنسا !

ـ ان القدر سيحمله الى حيث كتب له ، وسيقوده الى النهاية التى هى من نصيبه .. هذه هى عقيدتى التى أومن بها !

❉

◆ **وكانت** مدام ديفارج قد اعتادت أن تنفق كل مساء فى التنقل من مكان الى مكان فى حى سان انطوان لزيارة النسوة اللواتى يشتغلن أشغال الابرة مثلها . وكن ينسجن أشياء عديمة

الفائدة ، لكن هذا العمل الآلى كان يلهيهن عن طلب الطعـــام والشراب ، وكأن حركة اليدين تغنى عن حركة الفـــم ٠٠ فلو توقفت الاصابع النحيلة لتنبهت المعدة أكثر فأكثر الى الجوع الذى تعانيه

وحين هبط الظلام ، كان ظلام آخر يطبق على فرنسا !٠٠ واذا أجراس الكنائس التى كانت تدق دقاتها البهيجة فى سكون الليل تتأهب لليوم الذى تصهر فيه كى تصنع منها بنادق ٠٠ والصوت الذى كان فى تلك الليلة يجلجل قويا فى الفضاء سوف يخرسه الموت ٠٠ والنسوة اللواتى يشتغلن بالابرة فى حى سان انطوان لن يلبثن أن يمارسن هوايتهن هذه بجوار شىء لم يكن قد شيد بعد ، وهن يحصين الرؤوس التى تسقط من هـذا الشىء ٠٠ سوف يشتغلن بالابرة تحت ظل المقصلة (١)

◆ (١) كانت المقصلة تتكون من سكين ثقيل مائل يسقط بين مجرين ٠٠ وقد استعملت لاول مرة فى ايطاليا حوالى عام ١٣٠٠ ، ثم اقترح طبيب يدعى الدكتور جيلوتين فكرة استعمالها فى الثورة الفرنسية ٠٠ فهى لم تكن من اختراع الدكتور جيلوتين وانما اخترعها شخص يدعى «انطوان لويس» وقد اطلق عليها فى البداية اسم «الالويزون» ، نسبة الى اسمه

الفصل الثانى عشر

غبطة وأسى

◆ **كان** اليوم يوم زفاف لوسى مانيت وتشارلس درانى، وقد سطعت شمس الصباح بأشعتها المشرقة ٠٠ وجلس مستر لورى، ولوسى، ومس بروس خارج غرفة الطبيب، بينما اختلى تشارلس والدكتور مانيت فى الداخل يتحدثان ٠٠ ولم يكن باقيا على موعد ذهاب الجميع الى الكنيسة غير فترة وجيزة

وبدت العروس رائعة الحسن ، بحيث لم يكن مستر لورى ومس بروس مغاليين فى اطرائهما البالغ لها !٠٠ وقال مستر لورى : « وهكذا يا عزيزتى ، من أجل هذا اليوم أحضرتك فى أمان وأنت طفلة بين ذراعى عبر القنال الانجليزى ٠٠ وخليق بمستر تشارلس أن يعترف بجميلى ، ألا تعتقدين ذلك يا مس بروس ؟ »

فأجابت مس بروس : « هراء! انك لم تفعل صنيعك من أجله ، ومن ثم فليس لك عليه دين ولا جميل » ٠٠ فقال مستر لورى : « لعلك على حق ، ولكن لماذا تبكين ؟ »

فالواقع ان مس بروس كانت من السعادة بحيث التمعت الدموع فى عينيها ! ولكنها كانت تطوى جوانحها على داع خفى للاسى : هو أن أخاها العزيز الغالى سولومون (سليمان) ـ الذى سلبها مالها وهجرها منذ سنوات بعيدة ، وان كانت ما تزال تحبه ـ لم يكن هو زوج عزيزتها لوسى !

وقالت تجيب لورى : « لست أبكى ، بل انى أرى الدموع فى عينيك أنت ! » ٠٠ فرد عليها محتجا : « فى عينى أنا ؟ هراء !٠٠ والآن يا عزيزتى لوسى ، دعينى أقبلك وأباركك قبل أن يخرج الينا تشارلس ويطلب الاستئثار بك » ٠٠ وفى هذه اللحظة فتح

باب غرفة الطبيب وخرج منه الدكتور مانيت وبصحبته تشارلس دارنى .. **وكان وجه الاول شاحبا شـحوب الموتى ، لا أثر للحيوية فيه ، لكن مسلكه كان هادئا حتى لقد بدا عليه البشر واضحا .. على أن عين مستر لورى الفاحصة ما كانت لتنخدع بمثل هذا التظاهر ، فقد أدرك أن شيئا ما لا بد قد حدث داخل الغرفة فصدم الكهل صدمة شديدة !**

وقدم الطبيب ذراعه لابنته وقادها الى أسـفل حيث كانت تنتظرهما العربة التى استأجرها مستر لورى لهذه المناسبة .. ثم تبعهما الباقون فى عربة أخرى ، وسرعان ما وصل الركب الى كنيسة قريبة ، عقد فيها قران العروسين فى غير حضور أحد من الغرباء

وعاد الجميع الى البيت ليتناولوا الافطار ، فى جو يسوده المرح والانشراح . وكان يتألق على ذراع لوسى سوار من الماس أهداها اياه مسترلورى .. ولم تلبث لوسى أن ودعت أباها لتنصرف . وكان الفراق قاسيا عليه ، سيما وهو لم يفترق عنها يوما منذ اجتمع شملهما فى حانة ديفارج بباريس .. على أن هذا الفراق لم يكن ليطول ، فقد كان مقدرا أن يلحق الاب بالعروسين بعد اسبوعين ، ليقضى الثلاثة معا الايام الباقية من شهر العسل ثم يعودوا سويا الى دارهم

وخلص الاب رقبته من ذراعى ابنته وهو يقول لزوجهـا : « خذها يا تشارلس ، فهى لك » .. وسرعان ما كانت يدها تلوح لهم من نافذة العربة مودعة ، بينما وقف والدها ومستر لورى ومس بروس يلوحون لهـا بدورهم حتى اختفت العربة عن الانظار ..

وبرغم أن الطبيب كان بادى المرح ، يحاول جاهدا ـ ويوفق فى محاولته ـ أن لا يفسد سعادة ابنته .. فان شيئا ما كان يقلقه . وحين رفع يده الى رأسه وسار متخاذلا الى غرفته، تذكر مستر لورى صانع الاحذية المحطم الذى رآه فى حانة مسيو ديفارج !.. فقال يهمس لمس بروس : « أرى من الافضل ألا

نتحدث اليه الآن أو نزعجه • وانى مضـــطر للذهاب الآن الى المصرف ، لكننى ساعود سريعا • وعندئذ نأخذه فى نزهة خلوية نتناول فيها الغداء ، وآمل أن يسير كل شىء على ما يرام »

وعاد لورى من عمله بعد ساعتين ، وفيما هو يصعد السلم الى مخدع الطبيب ، استوقفه صوت طرقات عالية تنبعث من الحجرة •• فهتف مأخوذا : « يا آلهى ! ما هــذا ؟ » •• وأقبلت مس بروس تصيح ووجهها ينطق بالفزع : « لقد ضاع كل شىء ! ماذا نقول للعزيزة لوسى ؟ انه لا يعرفنى ، وقد عاد الى صنع الاحذية! »

وحاول مستر لورى تهدئة المربية بكل ما فى وسعه ، ثم مضى الى داخل حجرة الطبيب •• كانت منضدة صانع الاحذية موضوعة فى مواجهة النافذة ــ كما كانت فى تلك الحجرة بباريس ــ وكان الكهل منكبا على عمله وقد بدا عليه الانهماك الشديد

ــ دكتور مانيت ! يا صديقى العزيز •• دكتور مانيت !

رفع الطبيب رأسه لحظة ــ فى شىء من التساؤل الذى يخالطه الغضب لكونه قد أزعج أثناء عمله ــ ثم عاد ينكب على عمله من جديد • ولاحظ مستر لورى انه كان منهمكا فى صـــنع حذاء ، فتناول من جانبه حذاء آخر وسأله عنه •• فأجاب الكهل : « انه حذاء فتاة •• وكان يجب أن أفرغ منه منذ زمن طويل ! » •• فهتف به لورى : « ولكن ، دكتور مانيت •• أنظر الى ! » •• فأطاع الكهل كما لو كان قد ألف أن يتلقى الاوامر ويطيعها •• بينما استطرد زائره : « ألا تتذكرنى يا صديقى العزيز ؟ أمعن الفكر • ليست هذه مهنتك الاصلية • تذكر يا صديقى ، تذكر ! »

ولكن بلا جدوى ، فقد واصل مانيت عمله وأبى أن ينطـــق بكلمة ••

وقرر مستر لورى أن يكتم الامر عن لوسى وعن كل من يعرف الطبيب • وبمعاونة مس بروس أخطر الاصدقاء جميعا انه مريض ويحتاج الى الراحة بضعة أيام ! أما لوسى فقــد تقرر أن تكتب اليها مس بروس خطابا تنبئها فيه بأن أباها قد استدعى الى جهة بعيدة ليعالج مريضا ••

واعتزم لورى أن يراقب مانيت عن كثب دون أن يظهر له ذلك، ومن ثم دبر أن يغيب عن عمله فى المصرف بضعة أيام لاول مرة فى حياته ، وأن يأتى ليقيم في بيت صديقه !٠٠ وقضى اليوم التالى فى حجرة يستطيع منها أن يرى مانيت وهو يعمل ٠ ولم يحاول أن يتحدث اليه ، اذ وجد أن ذلك لا يزيده الا سوءا ٠ وكان الطبيب يأكل ما يقدم اليه ، ويعمل مثابرا طيلة النهار حتى يهبط الظلام فيتعذر عليه أن يرى شيئا ٠

وأقام لورى في البيت تسعة أيام ، حافلة بالقلق ، فقد كان يشفق من الساعة التى يبلغ فيها النبأ مسامع لوسى !٠٠ وفى مساء اليوم التاسع غلبه الارهاق من تأثير مراقبته لصديقه المريض طول النهار ، فنام فى مقعده ٠٠ وحين استيقظ وجد الشمس تملأ الغرفة فنهض ليطمئن على مريضه ٠٠ وكم كانت دهشته حين وجده مرتديا ثيابه العادية وجالسا الى جوار النافذة يقرأ ، وقد أبعدت جانبا منضدة وأدوات صنع الاحذية !

وأدرك لورى من حديثه مع الدكتور مانيت انه شفى من نكسته ، وانه يجهل كل شىء عما بدر منه خلال هذه النكسة التى دامت تسعة أيام ! ومن هنا اعتزم أن يوقفه على ماحدث له بطريقة لبقة ، فروى له القصة بحذافيرها زاعما انها وقعت لشخص ثالث غريب !٠٠ وهنا سأله الطبيب فى لهفة مستترة :

ـ وهل علمت ابنة صديقك بما أصاب أباها ؟

ـ كلا ، وأرجو أن لا تعلم به قط ٠٠ فقد أخفى السر عنها ، فلم يعلم به سواى وسوى امرأة تؤتمن عليه !

أمسك الطبيب يد محدثه فضغطها وغمغم : « كان ذلك فضلا كبيرا منك ٠٠ أشكرك ! » ٠٠ فضغط لورى بدوره يد صديقه ، وران عليهما الصمت بضع لحظات ٠٠ ثم استطرد : « والآن يا عزيزى مانيت ، أريدك أن تجيبنى على بضعة أسئلة تعيننى على فهم حالة صديقى ومواجهة احتمالاتها ٠٠ فأولا : كيف حدثت

النكسة ؟ وهل هناك خطر من عودتها ؟ وكيف ينبغى أن تعالج اذا تكررت ؟ »

فأجابه الطبيب بعد تفكير وجيز : « أرجح أن صديقك خشى من حدوث النكسة ، الى حد أنه لم يستطع أن يتحدث فى أمرها الى إي انسان »

ـ وما هو فى رأيك سبب تلك النكسة ؟

ـ يخيل الى أن سببها كان تذكر مفاجىء للشىء الذى تسبب فى اصابته بالصدمة الاولى !

ـ وماذا بشأن المستقبل ؟

فأجاب الطبيب بلهجة قاطعة : « ما دام صاحبك قد شفى من نكسته هكذا سريعا فهناك أمل كبير فى أن لا تصيبه نكسة أخرى، لان ماكان يخشاه قد وقع، وأسوأ ما فى الامر قد فات وانقضى! »

ـ هذا القول يثلج صدرى .. فشكرا

ـ بل اننى أنا الذى لن أنسى صنيعك !

ثم أحنى رأسه شكرا لله ..

وبذلك مرت الازمة .. وخرج الصديقان الى حيث قضيا يوما بهيجا فى نزهة خلوية ، وقد بدا على الطبيب انه استعاد كامل وعيه .. وفى الايام الثلاثة التالية ظل على أحسن حال ، فلما كان اليوم الرابع سافر ليلحق بلوسى وزوجها

وفى ليلة سفره ، تسلل لورى الى مخدعه ومعه بعض أدوات النجارة .. ولم يلبث أن سمع صوت نشر وتحطيم أخشاب ، صادرا من الغرفة ثم تبعته قرقعة أخشاب فى المدفأة، وتصاعدت منها سحب عالية من الدخان.. وتلت الاخشاب فى المدفأة أحذية غير تامة الصنع وقطع من الجلد ، فأحرقت هذه كلها أيضا فى احتفال مرح .. وأخيرا حفر لورى حفرة فى الحديقة ألقت فيها مس بروس مختلف أدوات صنع الاحذية .

وهكذا اختفت آخر آثار صانع الاحذية الذى شاهدناه فى حانة ديفارج بباريس !

الفصل الثالث عشر

الثورة

◆ **عندما** عادت لوسى وزوجها الى دارهما من رحلة شهر العسل كان من أوائل زائريهما سيدنى كارتون • واستمر يزورهمابين الحين والآخر ، كل شهرين تقريبا •• وفى نهاية العام بدأ البيت يردد الصدى المرح لضحكات طفلتهما « لوسى »! ولوحظ أن الصغيرة كانت تبدى ميلا واضحا نحو سيدنى كارتون كلما جاء ليزور والديها ••

وكان من بين زوار البيت الآخرين أيضا مستر لورى ، الذى كان أكثر ترددا على الاسرة من كارتون • وذات مساء فى منتصف يولية سنة ١٧٨٩ جاء متأخرا من المصرف مباشرة ، وجلس بجوار لوسى وزوجها أمام النافذة المطلة على الشارع المظلم •• ثم قال : « كدت أحسب اننى سأضطر الى قضاء الليلة فى البنك ، اذ كان لدينا عمل متواصل طيلة النهار بشكل لم يسبق له مثيل ، فقد بلغ الانزعاج بأهل باريس حدا جعلهم يعهدون بأموالهم الينا وينقلونها الى انجلترا بأسرع ما يستطيعون ! »

فقال دارنى : « هذا نذير سىء ! » •• وأضاف لورى : « هذا صحيح ، لكننا لا نعرف السبب فى هذه الظاهرة • أين مانيت؟» •• فأجابه صوت الطبيب وهو يدخل الغرفة : « هذا هو •• هل لك أن تشترك معى فى لعبة ورق ؟ »

ـ لا أظن ، فانى جد متعب • لكنى لا أمانع فى قدح من الشاى اذا تكرمت على به لوسى ••

فقالت لوسى : « بلا شك »

ـ شكرا يا عزيزتى • هل أوت الطفلة الى فراشها ؟

ـ أجل ، واستغرقت فى النعاس

ـ هذا حسن • الكل فى أمان وخير حال • وأحمد الله على

عدم وجود ما يعكر الامن والسلامة فى بلادنا ٠ لكنى صادفت من أسباب الاضطراب خلال النهار ما يجلعنى فى غير حالتى الطبيعية ، وكأنى قد شخت فجأة عن ذى قبل ! أهذا قدح الشاى يا عزيزتى ؟ شكرا ٠٠ والآن فلنهدىء من روعنا ونأخذ فى الحديث

❖

◆ فى ذلك اليوم ذاته كان هناك عبر البحر ـ فى حى « سان انطوان » بباريس ـ زئير مروع ينبعث من حناجر الجماهير ، و « غابة » من السواعد العارية تلوح فى الهواء مهددة ، وكأنها أغصان أشجار تهتز فى مهب ريح الشتاء !٠٠ كانت كل الايدى تحمل أسلحة: بنادق، وقضبان من الحديد والخشب، وسكاكين، وفؤوسا ، وكل سلاح آخر يؤدى الغرض ٠ وكان الذين لا يجدون سلاحا ينتزعون الاحجار وقوالب الطوب من مكانها فى الجدران حتى تدمى أيديهم !٠٠ وكان مركز هذه الجماهير الثائرة حانة ديفارج ، حيث وقف ديفارج نفسه يصدر الاوامر ويوزع الاسلحة وقد اتسخت ثيابه ووجهه بغبار البارود وقطرات العرق ٠٠

وصاح فى واحد من رجاله : « ابق بالقرب منى يا جاك رقم(٣) ٠٠ وأنتما يا جاك رقم (١) ورقم (٢) ، تفرقا وتزعما أكبر عدد من هؤلاء المواطنين ٠٠ أين زوجتى ؟ » ٠٠ فأجابته هذه وهى ما تزال محتفظة بهدوئها المألوف ـ وان كفت اليوم عن شغل الابرة ! ـ « هأنذا ، انى سألازمك فى الوقت الحاضر ، لكنك بعد قليل سترانى على رأس النساء الثائرات ! »

وعاد ديفارج يصيح : « هيا بنا أيها الرفاق والمواطنون ٠٠ نحن على استعداد ٠٠ فالى الباستيل ! »

وبزمجرة كالرعد تحرك ذلك البحر المتلاطم من الاجسام ، موجة فى اثر موجة ، فغمر المدينة حتى موضع ذلك السجن الكبير ٠٠ ولم تلبث سحب الدخان وألسنة النار أن تصاعدت فغطت

جدرانه الحجرية الضخمة ، وأبراجه الثمانية الشاهقة ! وفى وسط ذلك الجحيم من اللهب والدخان كان ديفارج يصيح بالجموع الصاخبة : « الى العمل يا رفاق ، الى العمل !٠٠ الى العمل يا جاك رقم ١ ، وجاك رقم ٢ ، وجاك رقم ألف ، وجاك رقم ٢٥ ألفا ! » ٠٠ بينما صاحت زوجته بالثائرات : « الى أيتها النساء ٠٠ فنحن نستطيع أن نقتل كما يقتل الرجال حين يسقط الحصن » ٠٠ فتدافعت اليها النساء من كل صوب وقد تسلحن بأسلحة مختلفة ، لكنهن جميعا تشابهن فى تسلحهن بالجوع والتعطش الى الانتقام !

وفجأة رفع علم أبيض داخل بناء السجن ٠٠ وفى أقل من طرفة العين اكتسحت الجماهير ديفارج الى داخل القلعة المستسلمة ، وهو لا يكاد يجد وقتا ليتنفس أو يدير رأسه ، حتى وجد نفسه فى الفناء الخارجى ٠٠ وكانت الضوضاء والصيحات والهتافات تنبعث من كل صوب مرددة : « السجناء! ٠٠ السجلات !٠٠ القسم السرى ! » ٠٠ وقبض الثوار على ضباط السجن وهددوهم بالموت فورا اذا لم يرشدوهم فورا الى كل ركن سرى من أركان السجن٠٠ وأمسك ديفارج نفسه بواحد منهم وصرخ فيه : « أرنى طريق البرج الشمالى ! أسرع ! » ٠٠ فأجاب الرجل : « سأريك اياه طائعا ٠ تعال معى ٠٠ لكنه خال من أى معتقل »

ــ وما معنى عبارة « ١٠٥ ، البرج الشمالى » ؟

ــ انه رقم زنزانة ٠٠

ــ أرنى اياها !

ــ اتبعنى اذن ٠٠

وقاد ضابط السجن ديفارج وزميله جاك رقم ٣ نحو المكان المنشود ، مارين بأبهاء حجرية معتمة لم ينفذ اليها يوما ضوء النهار ٠٠ وزنزانات ضيقة حالكة الظلمة ، كالاقفاص ، ذات أبواب كئيبة المنظر ٠٠ ودرجات سلم حجرية رطبة ٠٠ وبحكم سمك الجدران، لم تلبث ضوضاء الجماهير الصاخبة فى الخارج أن تلاشت تماما !

ووقف الرجل بمرافقيه أمام باب منخفض ، فوضع فى قفله مفتاحا ، ثم فتح الباب الثقيل بكل صعوبة وبطء ، قائلا : « هاهى الزنزانة رقم (١٠٥ ، البرج الشمالى) » ٠٠٠ كانت فى الزنزانة كوة صغيرة فى أعلى الجدار ، ذات قضبان ، ولكن بغير زجاج ٠٠ وثمة مدفأة صغيرة ، تتخللها بدورها القضبان الغليظة ، ومقعد خشبى ، ومنضدة ، وحشية من القش ٠٠ وفيما عدا ذلك لم تكن ترى غير الجدران الاربعة السوداء ، وحلقة حديدية صدئة فى أحدها ٠٠

وقال ديفارج : « قرب المصباح من هذه الجدران كى أفحصها »

فأطاع الرجل ٠٠ وفجأة هتف ديفارج بزميله : « أنظر هنا يا جاك ! » ٠٠ فقرأ جاك على الجدار ، حرفى : « ا٠ م » ٠٠ واذ ذاك همس ديفارج فى أذنه: « (ألكسندرمانيت) ٠٠ وهنا مكتوب أيضا : « طبيب تعس » ٠٠ أعطنى هذا القضيب الحديدى ياهذا!» ٠٠ واستدار نحو المقعد الخشبى والمنضدة فأهوى عليهما ببضع ضربات تركتهما حطاما ! ثم أردف لزميله : « افحص الحطام جيدا يا جاك ، ودقق النظر ! واليك مديتى شق بها هذه الحشية وافحص قشها ٠٠ ارفع المصباح قليلا يا هذا ! »

وفحص ديفارج بنفسه المدفأة ، فأخرج منها بعض القاذورات والغبار ، وفتش بأصابعه فى داخلها وبين بقايا ورماد الخشب المحترق فى قاعدتها ٠٠ ثم سأل صاحبه : « ألم تعثر على شىء بين الخشب والقش يا جاك ؟ » واذ أجابه هذا بالنفى ، أردف : « فلنجمع الحطام ونحرقها ٠٠ أشعل النار فيها يا هذا ! »

فأشعل ضابط السجن النار فى الكومة الصغيرة ، ثم تركها الثلاثة وقد تصاعدت منها ألسنة اللهب وخرجوا من البـــاب المنخفض ٠٠ وعادوا أدراجهم الى الفناء الخارجى حيث كانت تسمع ضوضاء الثوار

وكان هؤلاء قد وضعوا أيديهم على حاكم السجن وساقوه الى المحاكمة ٠ وكانت ترى بالقرب منه مدام ديفارج ، التى لم تكد

تلمح زوجها حتى نادته ليشهد ما سيجرى ·· وسارت هى بالقرب من الحاكم التعس تلازمه وهم يمضوا به ·· فلما تلقى الضربة من الخلف وسقط ميتا ، وطأت عنقه بقدمها ·· وقطعت رأسه !

هكذا بدأت الثورة ، وهكذا استمرت ·· فلقد حل يوم « سان انطوان » الموعود ففضب غضبته ! ··

كانوا يشنقون الرجال على أعمدة المصابيح فى الشوارع وأطلقوا سراح المسجونين فى « الباستيل » وحملوا هؤلاء التعساء الذاهلين على أعناقهم خلال الطرقات ·· وبالاختصار ، فانهم كانوا فى كل ما فعلوا قساة لا يرحمون ·· فلقد صهرتهم نار الآلام والعذاب فزادتهم صلابة، بحيث ماعادت لمسة الشفقة الناعمة تترك أثرا فى قلوبهم التى تحجرت !

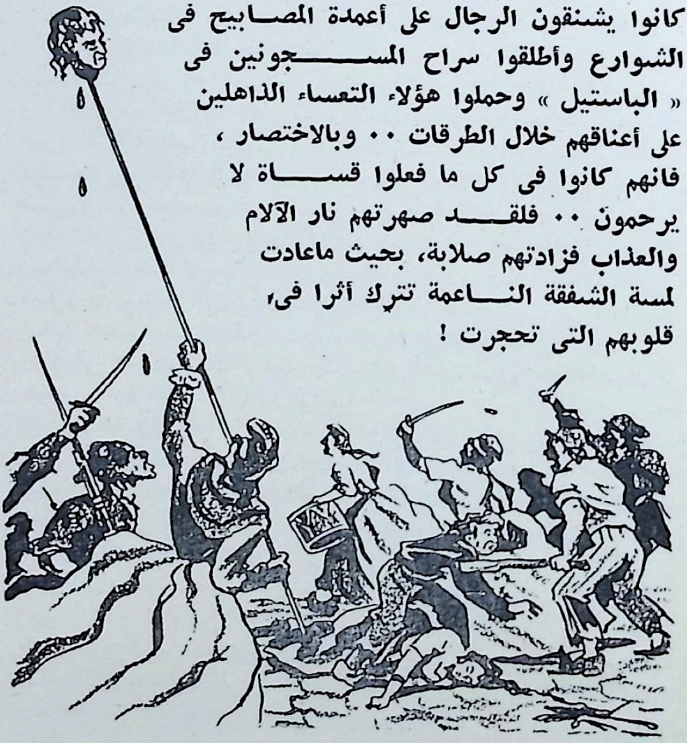

الفصــــل الرابع عشر

نهاية القصر

◆ **كانت** القرية التى أعدم فيها « جاسبار » قرية فقيرة ٠ وكان الريف المحيط بها بلقعا وخرابا ، يبدو كل ما فيه محطما منهارا : الدور ، والاسوار ، والحيوانات ، والرجال ، والنساء ، والاطفال ٠٠ حتى الارض التى كانت تعطيهم رزقهم ٠٠ فقد ظلت أسرة المركيز السابق سنوات طوالا تستنزف أموال أهل القرية بواسطة زبانية أمثال « مسيو جابيل » محصل الضرائب ! وهكذا لم يبق الآن شيء ليستنزف، بل لم يبق ما يكفى لسد رمق الاهالى البؤساء ٠ وحتى بعد موت المركيز ظل الناس على حالهم ، بل زاد الحالة سوءا نزوح عدد من الغرباء اليهم ٠ وكان هؤلاء الغرباء قد جاءوا ليلقنوا الاهالى أفكارا جديدة ويتولوا قيادتهم حين تدق ساعة وضع هذه الافكار الجديدة موضع التنفيذ !

وبقى السجن القائم فوق التل ، والذى سيق منه جاسبار الى حتفه ، كما هو ٠ كان ما يزال فيه جنود ، وضباط يرأســون الجنود ٠٠ ولكن ما من واحد من هؤلاء الضباط صار يعرف مقدما ما اذا كان رجاله سينفذون الامر الذى سيصدره ، أم يتجاهلونه ويعصونه !٠٠ وكانت الافكار والنظريات الجديدة قد تفشت وانتشرت من باريس الى المدن الاخرى ، ومن هذه المدن الى لقرى ٠٠ وبدأت الآن تستشرى فى صفوف الجنود !

وكان عامل الطرق يواصل عمله القديم ، برغم أن ما يتلقاه أجرا عن هذا العمل لم يكن يكفى الا ليسد رمقه ٠٠ وكم مرة مر به وهو يزاول عمله رجال غرباء ، خشنون ، يسيرون حفــاة الاقدام أو يضعون فى أقدامهم أخفافا من الخشب ، لكنهم جميعا مسلحون ٠ وكان هؤلاء الغرباء ينشرون الافكار الجديدة فى طول

البلاد وعرضها وينفذون أوامر صادرة اليهم من زعماء الثورة فى باريس ·· وذات يوم من أيام شهر يوليه اقترب وحد من هؤلاء من عامل الطرق وهو يشتغل فوق التل القائم خارج القرية ، فنظر اليه ·· والى القرية التى تحت السفح ·· والكنيسة ·· والسجن الذى وراءها ·· وبدا انه وجد ما كان يبحث عنه ، فسأل العامل : « كيف الاحوال يا جاك ؟ » فأجابه هذا : « على ما يرام يا جاك »·· وعندئذ جلس الغريب على كومة من الاحجار، وأردف : « أما من غداء ؟ » ·· فأجابه العامل : « لا يجد أحد الآن سوى العشاء » ·· وعلق الغريب : « هكذا الحال فى كل مكان ·· أينما ذهبت أصادف أناسا لا يجدون غداء يمسكون به بطونهم ! »

وأخرج الرجل غليونا اسود لونه ، فحشاه بالتبغ وأشعله ، وظل يدخنه حتى توهج التبغ بالحمرة ·· وعندئذ نزعه من فمه وأسقط فيه شيئا اندلع بلهب صغير ثم خبا !·· فتعرف العامل على هذه الاشارة التى كان ينتظرها ، وسأل محدثه : « الليلة ؟ »

ــ الليلة · وسوف يقابلنى الآخرون هنا ·· أين المكان ؟

ــ على الطريق ، على بعد نحو خمسة أميال من القرية

ــ حسنا ·· ومتى تفرغ من عملك ؟

ــ ساعة الغروب

ــ هل لك أن توقظنى قبل أن تمضى ؟ لقد قضيت ليلتين متواليتين سائرا ، دون أن أستريح · ولن أفرغ من تدخين غليونى حتى أستغرق فى النعاس كالطفل · لا تنس أن توقظنى

وفرغ الغريب من تدخين غليونه فخلع حذائيه الخشبيين واستلقى على ظهره فوق كومة الاحجار ، ونام لساعته ·· حتى انحدرت الشمس للغروب واحمر لون الافق ، فأيقظه العامل ·· ثم جمع أدواته وانصرف صوب القرية · وحين بلغ النبع ، حيث كان قد جىء بالماشية الهزيلة لتستقى ، همس لكثيرين من أهل القرية ، وهمس هؤلاء بدورهم لغيرهم ·· فلما فرغ الجميع

من تناول عشائهم المتواضع لم يأووا الى الفراش كعادتهم ، وانما خرجوا ثانية الى حيث اجتمعوا حول النبع يتهامسون وأعينهم شاخصة نحو السماء ، ولكن فى اتجاه واحد !

وقلق مسيو جابيل ، فصعد الى سطح منزله ونظر بدوره فى ذلك الاتجاه · ثم أرسل الى الرجل الذى يحتفظ بمفاتيح الكنيسة ينبهه الى احتمال أن تدعو الحاجة الى قرع أجراس الكنيسة وشيكا !

وتكاثف الظلام ، وهبت الريح ، وأحنت الاشجار التى تحرس القصر العريق هاماتها نحو مبناه الضخم· وتسللت خلال الاشجار أربعة أشباح خشنة المظهر ، وومضت أضواء أربعة مشاعل ثم تفرقت ، كل الى اتجاه ·· وساد الظلام من جديد !

ولكن لفترة قصيرة ، فسرعان ما تألق القصر كله بنور غريب من الداخل ، وتوهجت النوافذ ، وتصاعد الدخان ، وتطاولت ألسنة اللهب واتسعت رقعتها وازداد توهجها ·· وسرعان ما بدت واجهة القصر كلها طعمة للنيران المندلعة !

وبدا الوهج بوضوح لمن فى القرية ، ولم يلبث أن أقبل فارس ينهب الارض بجواده فى الظلام حتى بلغ باب مسيو جابيل فترجل وطرقه صائحا : « النجدة يا جابيل ! النجدة يا قوم ! » ·· ودقت أجراس الكنيسة تدعو الناس للتجمع · لكن أحدا لم يتحرك ! ووقف عامل الطرق مع مائتين من رفاقه بجوار النبع عاقدى الاذرع ، ينظرون الى عامود اللهب المتصاعد الى السماء ·· فقال أحدهم ضاحكا : « ان ارتفاعه ليبلغ الأربعين قدما ! » ·· ولم يتحرك أحد

وانطلق الفارس بجواده خلال القرية نحو التل المؤدى الى السجن · وعند بوابته كان جماعة من الضباط يتطلعون الى النار ، وعلى بعد خطوات منهم تجمع عدد كبير من الجنود يحذون حذوهم !·· وهتف الفارس : « النجدة أيها السادة ! القصر يحترق · ما يزال فى الامكان انقاذ الاشياء الثمينة من النيران·

النجدة ! النجدة ! » •• فنظر الضباط الى الجنود ، ونظر الجنود الى النار •• وأجابوا : « فليحترق ! »

وترك القصر طعاما للنيران ، وأذكت الريح اللهب فلم تلبث أن تساقطت كتل ضخمة من الاحجار والاخشاب . وامتد الوهج الساخن الى الاشجار القريبة فتساقطت أوراقها وبدأ يتصاعد منها الدخان •• وحام حول المكان عدد من الطيور ، ولكن سرعان ما صرعتها الحرارة والدخان فسقطت فى الاتون !•• وتفرق فى قلب الليل أربعة رجال ، نحو الجهات الاربع ، كل يقصد قصرا آخر •• وهناك فى القرية كانت الاجراس ما تزال تدق ، ولكن لا انذارا بالخطر هذه المرة ، وانما ابتهاجا بالنصر !

بل ان أهل القرية ، وقد أثار انفعالهم اندلاع النار ، وقرع الاجراس ، والجوع •• تذكروا أن مسيو جابيل هو الذى اعتاد أن يجمع منهم الايجارات ويحصل الضرائب ، فأحاطوا بداره وصاحوا به كى ينزل •• لكنه حصن بابه بالقضبان الثقيلة وانسل الى السطح حيث اختبأ خلف المدخنة ، وفى عزمه أن يقذف بنفسه الى وسطهم — لو أفلحوا فى اقتحام بابه — فيأخذ معه على الاقل واحدا منهم أو اثنين الى العالم الآخر !

لكن هياج المتجمهرين لم يلبث أن خفت حدته ، فلما بزغت أول بشائر الفجر كانوا قد سئموا الانتظار فتفرقوا الى بيوتهم •• وهبط مسيو جابيل من مخبأه شاكرا الله على نجاته !••

على أن كثيرين من الموظفين فى القرى المجاورة لم يكن لهم مثل حظه ، فطلع عليهم الصباح التالى وما بعده وهم معلقون فى أشجار أقرب غابة !•• وفى بعض القرى هاجم الجنود الاهالى أنفسهم وشنقوا بعضا منهم !•• ولكن حيثما اتجه الرجال الاربعة ، فى الجهات الاربع ، كانت تندلع فى أثرهم النيران ، ويدب دبيب الذعر فى قلب الظلام !

الفصـــل الخامس عشر

مهمة فى باريس

◆ **كان** بنك تلسون فى لنـــدن هو ملتقى جميع النبـــلاء الفرنسيين الذين فروا من باريس ٠٠ فمن كان منهم بعيد النظر فهرب أمواله الى انجلترا قبل الثورة ، جاء الآن يسحب منها ما يحتاج اليه ٠ ومن فاتته الفرصة جاء يلتمس من صديق قديم قرضا ينقذه من محنته ٠ وهكذا صار المصرف المذكور أفضـــل مكان للاستفســـار عن آخر أنباء فرنســـا ٠ وحين كثرت الاستفسارات عمدت ادارة البنك الى تعليق ما يصلها من أنباء فى لوحة على احدى النوافذ يستطيع قراءتها من يشاء ٠٠

وذات عصر، كان مستر لورى جالسا الىمكتبه وأمامه تشارلس دارنى متكئا على المكتب يتحدث معه بصوت خافت ، وكان لورى يقول : « أنت تعتقد اننى بسبب تقدمى فى السن ينبغى أن لا أذهب ؟ »

ـ بلا شك ، فالطقس متقلب ، والرحلة طويلة ، والمواصلات عسيرة ، وباريس ليست آمنة ٠٠

ـ يا عزيزى تشارلس ، انها آمنة بالنسبة لمثلى ٠ فلن يعبأ أحد بالتعرض لشيخ أربى على الثمانين ، بينما العاصمة ملأى بمن يستحقون التعرض لهم ! ثم أنه لا بد من ذهاب مندوب من مصرفنا هنا الى فرعنا هناك ، على أن يكون خبيرا بباريس وبالمهمة الموكولة اليه ٠٠

فغمغم دارنى كمن يحدث نفسه : « ليتنى أذهب أنا ! »

ـ حقا ؟ تتمنى أن تذهب وأنت فرنسى ؟!

ـ بل لاننى فرنسى فكرت مرارا فى الذهاب٠٠ فأحيانا يخيل الى أننى قد أستطيع اقناع القوم هناك بالتخفيف من غلوائهم

ـ وماذا بشأن لوسى ؟ أو لا تخجل من مجرد الفكرة ؟

فقال دارنى مبتسما : « حسنا ، لن أذهب ٠٠ وأنت ؟ »

ـ أنا مصمم على الذهاب . انك لا تتصور تعقد أعمالنا فى الوقت الحاضر ، والخطر الذى تتعرض له سجلاتنا وأوراقنا فى فرنسا ، فقد تصادر وتحرق فى أية لحظة .. بينما لو ذهبت فلربما استطعت تهريب المهم منها ، أو اخفائه هناك . انها مهمة لا يستطيعها سواى ، فهل أتردد ؟

ـ لكم أنا معجب بك ! اذن فأنت راحل الليلة ؟

ـ أجل ، الليلة .. فينبغى أن لا أتأخر أكثر من ذلك

فى الوقت الذى جرى فيه هذا النقاش فى مكتب لورى ، كان فى الغرفة عدد من النبلاء الفرنسيين الذين جاءوا لاعمال تخصهم، كما كان بين الموجودين مستر سترايفر ، الذى كان يعرب عن حنقه على الشعب الفرنسى وأمنيته فى أن يمحى من على ظهر الارض ! ـ القول الذى امتعض دارنى لسماعه ـ وفى تلك اللحظة دخل مدير البنك فوضع أمام لورى مظروفا مغلقا متسخا ، متسائلا عما اذا كان البحث لم يفض بعد الى معرفة شخصية صاحبه ؟ واستطاع دارنى أن يلمح العبارة المكتوبة على الظرف ، فاذا هى : « **الى المركيز الفرنسى السابق (سان ايفريموند) ، طرف بنك تلسون وشركاه ، لندن ـ عاجل جدا** » !!

وكان دكتور مانيت قد رجا من دارنى ، فى صبيحة يوم زواجه ، أن لا يبوح باسمه الحقيقى لمخلوق ، الا بموافقته .. وهكذا أخفاه حتى عن زوجته ومستر لورى !.. ومن هنا قال لورى يجيب مدير المصرف : « كلا ، لم أقف لصاحب هذا الاسم على أثر ، برغم استفسارى عنه من كل من أعرف »

وأمسك الخطاب فى يده بحيث رآه جميع الحاضرين .. فقال أحدهم : « أحسبه ابن أخى المركيز الذى قتل . لكم يسعدنى أننى لم أعرفه ! » .. بينما قال آخر : « انه جبان فر من المعركة ! » .. وأضاف ثالث : « هو شخص وقع تحت تأثير الافكار الجديدة ، فعارض مبادىء عمه المركيز السابق ثم ترك ميراثه منه غنيمة للشعب ! » وهنا صاح سترايفر : « ماذا ؟ أهو من هذا الطراز ؟ دعنى أرى اسم ذلك الجبان ! »

لم يستطع دارنى أن يتذرع بالصمت أكثر من ذلك ، فقال : « انى أعرف الشخص الذى تتحدثون عنه » ٠٠ فتصدى له سترايفر : « تعرفه ؟ يؤسفنى أن أسمع ذلك ، فانه جبان ٠ قل له ذلك نيابة عنى ، ولتقل له أيضا انه ما دام قد ترك ممتلكاته للثوار فلماذا لم يتزعمهم ؟ ولكن ، كلا ، فمثله لن يدع نفسه تحت رحمتهم ، وانما هو دائما يفر هاربا ! »

قالها سترايفر وهو يلوح بذراعه ثم خرج ٠ وتبعه أكثر الحاضرين ٠٠ فلم يبق سوى لورى ودارنى ، واذ ذاك كلف الاول زائره بتوصيل الخطاب الى صاحبه الذى يعرفه ، فقبل مرحبا ! وتواعد الاثنان على اللقاء فى الساعة الثامنة ، قبيل رحيل لورى الى باريس مباشرة ٠٠ وخرج دارنى مبلبل الفكر ، فلم يكد يبلغ مكانا آمنا حتى فض الخطاب وقرأ فيه ما يلى :

سجن (أباى) بباريس ، فى ٢١ يونية سنة ١٧٩٢

سيدى .. بعد ان تعرضت حياتى طويلا للخطر على ايدى اهل القرية ، قبض على واحضرت سيرا على قدمى الى باريس . ثم لم يكفنى ذلك فدمروا منزلى تدميرا تاما !.. والجريمة التى زج بى فى السجن من اجلها ، والتى سأحاكم بسببها وافقد حياتى (اذا لم تخف لمساعدتى) ، هى اننى عملت لصالح شخص هجر وطنه . وعبثا اقول لهم اننى عملت ـ طبقا لاوامرك ـ لصالح الشعب لا ضده .. وعبثا اقول اننى لم اجمع ضرائب ولا ايجارات ولم اقدم احدا من الاهالى الى القضاء ،منذ آلت الثروة اليك ! .. فاننى كلما سالت عن التهمة المنسوبة الى ، لا اتلقى الا جوابا واحدا : هو اننى عملت لصالح ((مهاجر)) .. واين هو ؟

نعم يا سيدى : اين هو ؟ انى اتساءل فى منامى اين هو ! اسال السماء: هل سياتى لينقذنى ؟ ولكن لا جواب !.. اواه يا سيدى ، اننى ارسل صرختى الحزينة عبر البحر ، آملا ان تبلغ مسامعك عن طريق بنك تاسون الكبير المعروف لنا فى باريس . فبحق السماء اناشدك يا سيدى ان تخف لمساعدتى وتعمل على اطلاق سراحى . لقد كانت غلطتى اننى اخلصت لك ، واليوم اتوسل اليك ان تخلص لى !.. ومن اعماق سجن الفزع والرعب ، والموت يدنو منى شيئا فشيئا ، ابعث اليك يا سيدى بهذا الدليل المثبت لاخلاصى المشؤوم !

خادمك التعس « جابيل »

◆ **بلبلت** هذه الرسالة ذهن دارنى أشد البلبلة : انه قد أوصى جابيل بترك حقوقه للاهالى ، وعمل ما فى وسعه من أجلهم، وتقديم المعونة المتواضعة التى يملكها لهم ٠٠ والآن ، هذا هو خادمه المخلص فى السجن ، وجريمته الوحيدة أنه نفذ أوامره ! ٠٠ بدا لدارنى بوضوح أن واجبه يقتضيه المبادرة بالسفر الى باريس ٠ ولم ير فى ذلك خطرا ما ، فان أهالى باريس لا بد سيذكرون بالامتنان أياديه البيضاء على مواطنيه ، فلم لا يهرع لانقاذ خادمه الامين من الموت المحتوم الذى ينتظره ؟

وفيما هو يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، قرر أن يخفى عن لوسى ووالدها نبأ رحيله ، الى ما بعد سفره بالفعل ، كى يجنبهم قلقا لا مبرر له ٠٠ واذ رسم خطته على هذا الاساس مضى ليودع لورى حسب وعده ٠ وهناك أنبأه بأنه سلم الخطاب الى صاحبه ، وان هذا يرجوه أن يحمل الى مرسل الخطاب ــ السجين «جابيل» بسجن (أباى) ــ رد المركيز ، وفحواه : انه تسلم رسالته ، وانه قادم فى طريقه اليه ، وسوف يبدأ رحلته فى مساء اليوم التالى ! ٠

واذ حان موعد رحيل لورى ، عهد الى دارنى بأن يحمل سلامه الى زوجته وطفلته ، موصيا اياه برعايتهما حتى يعود ٠٠ فهز دارنى رأسه مبتسما ابتسامة شك ، والعربة تبتعد بصاحبه ! وفى تلك الليلة ــ ليلة الرابع عشر من أغسطس ــ جلس دارنى فى ساعة متأخرة يكتب خطابين : واحدا الى لوسى والآخر الى الطبيب ، شارحا الامر لهما وواعدا بالكتابة اليهما من فرنسا ٠

وكان اليوم التالى يوما عصيبا ، اضطر خلاله أن يسيطر على أعصابه كى لا يفلت منه ما يفضح نيته بشأن السفر ! وفى ساعة مبكرة من المساء قبل زوجته وطفلته وخرج ، زاعما أنه سيعود بعد قليل ٠٠ وعلى هذه الصورة بدأ ــ بقلب مثقل ــ رحلته الى وطنه ، ملتمسا التشجيع من اعتقاده بأنه ذاهب لنجدة سجين تعس ينتظره ملهوفا عبر البحار ٠٠

الفصل السادس عشر

عودة دارنى الى فرنسا

◆ **فى** سنة ١٧٩٢ كان السفر من انجلترا الى باريس يستغرق وقتا طويلا ٠٠ فبرغم جلوس الملك لويس على العرش كانت الطرق فى فرنسا رديئة ، والعربات رديئة ، والجياد رديئة ! لكن مصاعب أخرى قد طرأت أيضا الى جانب ذلك : كانت لكل مدينة وقرية عصابتها من « الوطنيين » المسلحين بالبنادق المحشوة ، الذين كانوا يستوقفون جميع العابرين ويستجوبونهم ويفحصون أوراقهم ويفتشون عن أسمائهم فى قوائم خاصة يحملونها ٠٠ وعلى ضوء نتيجة ذلك كله يطلقون سراحهم أو يعتقلونهم ، وفق هواهم ، كل ذلك باسم « الحرية ، والمساواة ، والاخاء » ، والجمهورية الفرنسية الجديدة

وقبل أن يتوغل تشارلس دارنى فى رحلته بدأ يدرك أنه لن يسمح له بالخروج من فرنسا الا بعد أن توافق السلطات على اعطائه شهادة بأنه « مواطن صالح » ! ولكن أيا كان المحتمل أن يحدث فانه يجب أن يواصل رحلته ٠ **وكلما كانت تغلق خلفه بوابة من محطات الطريق المخفورة كان يشعر أنها بوابة جديدة أغلقت بينه وبين أحبائه فى انجلترا ٠٠ وهكذا أحس والعربة تطوى به مراحل الطريق أنه أشبه بحيوان فى قفص ، أو طير فى فخ ٠٠ وأنه قد فقد حريته بأكملها !**

وفى يوم واحد أوقفوه عشرين مرة ، واستجوبوه ، وعاقوه أو تركوه يواصل رحلته ٠ وانقضت عليه أيام ثلاثة يقطع أرض فرنسا وما زالت الشقة بعيدة بينه وبين باريس ٠ وأوى الى الفراش منهوكا فى احدى حانات الطريق الصغيرة ، يفكر فى أمره ٠٠ انه لم يبلغ هذه المرحلة من الطريق الا بفضل اظهاره خطاب جابيل لكل من يستجوبه ٠٠ لذلك لم يدهش البتة

حين أوقظه فى منتصف الليل موظف رسمى يصحبه ثلاثة « وطنيين » مسلحين · وابتدره الموظف : « أيها المهاجر ، سأرسلك الى باريس فى حراسة جنود ، لاضمن وصولك اليها » ·· فأجابه دارنى : « أيها المواطن ، لست أبغى غير الوصول الى باريس ، لكننى فى غنى عن الجنود » ·· فصاح فيه أحد الرجال المسلحين وهو يضرب الفراش بطرف بندقيته : « صمتا ·· الزم الهدوء ، أيها الارستقراطى ! »

ولم يكن فى وسع دارنى سوى أن يطيع ، فأخذوه الى مخفر جلس فيه نفر من الوطنيين الخشنى المظهر يدخنون ويشربون ·· وفى الساعة الثالثة صباحا بدأ الركب رحلته فوق طرقات مبللة ، وكان يتولى حراسته على الجانبين وطنيان مسلحان يرتديان قلنسوتين حمراوين ، وقد أوثق أحدهما ذراعه بجواد دارنى بواسطة حبل ·· وخلال الطريق راودت دارنى شتى المخاوف ، لكنه كان يحتال على تبديدها زاعما لنفسه أن الموقف لا بد أن ينجلى على أحسن وضع حين يشهد جابيل لذوى الشأن بالباعث الذى دفع سيده الى المجىء ··

وحين بلغ الركب بلدة « بوفيه » صادف دارنى أول مأزق حقيقى ، فقد أحاط به جمع صاخب راح أفراده يتصايحون : « يسقط المهاجر ! » ·· فحاول دارنى تبرير موقفه بقوله : « لقد عدت الى الوطن من تلقاء نفسى أيها الرفاق ! » ·· لكن أحدهم تقدم نحوه صائحا وملوحا بمطرقة فى يده : « بل انك مهاجر لعين ، وارستقراطى لعين ! » ·· واذ ذاك تصدى أحد الموظفين لحماية دارنى قائلا للآخر : « دعه وشأنه ، فلسوف يحاكم فى باريس » ·· فصاح آخر : « نعم ، سوف يحاكم ويدان باعتباره خائنا ! » فأجابه دارنى : « أيها الصديق ، أنا لست خائنا » ·· لكن الرجل صاح بالجماهير : « انه يكذب ، فبحكم القانون الجديد تخص حياته وممتلكاته حكومة فرنسا »

وهكذا لم يشعر دارنى بشىء من الامان الا حين دبر حراسه نقله الى فناء حانة مجاورة وأغلقوا بابها فى وجه الجماهير الهائجة ٠٠ **واذ ذاك سأل دارنى واحدا من مرافقيه : « ما هذا القانون الجديد الذى يشيرون اليه ؟ » ٠٠ فأجابه : « انه قانون يقضى بالاعدام على كل مهاجر يعود الى فرنسا ٠ وقد صدر فى الرابع عشر من هذا الشهر ٠٠ » فغمغم دارنى : « فى اليوم الذى غادرت فيه انجلترا ! »**

وبعد فترة راحة ، وساعات تعسة من السفر المضنى ، وصل الركب أخيرا الى السياج القائم خارج أسوار باريس ، فبرز لهم منه رجل بادى النفوذ والشكيمة ، ابتدر الحراس : « أين أوراق هذا السجين ؟ » ٠٠ فأجابه دارنى غاضبا : « سجين ؟ انى مسافر حر ٠ انى مواطن فرنسى ، عدت الى فرنسا بمحض ارادتى ! »

لكن الرجل لم يلق اليه بالا ، وانما عاد يكرر سؤاله للحراس : « أين أوراق هذا السجين ؟ » فقدموا اليه الاوراق ، واذ ذاك تناولها فقرأ بينها خطاب جابيل ٠٠ ودون أن ينطق بكلمة عاد الى داخل نقطة الحراسة ٠ وتلفت دارنى حواليه ، فأبصر وراء البوابة جمعا غفيرا من الرجال والنساء والحيوانات والعربات ، فى انتظار فحص أوراقهم والتصريح لهم بالخروج من باريس ، وكانت هذه العملية تستغرق وقتا طويلا ـ بالنسبة لكثرة عددهم ـ فنام منهم من نام ، وشغل البعض وقته بالثرثرة ، أو لاذ بالصمت ٠٠ وكان الجميع يضعون على رؤوسهم قلنسوات حمراء ٠

وبعد فترة طويلة برز رجل أصدر أمره بفتح البوابة ، ثم أعطى الحراس ايصالا باستلامه لسجينهم ، فامتطوا جيادهم وعادوا من حيث أتوا ٠ أما دارنى فقد اقتيد الى نقطة الحراسة ،

وكانت مزدحمة بالوطنيين والجنود وقد فاحت منهم رائحة الخمر والتبغ القوية ٠٠ ورفع ضابط عابس خشن المظهر وجهه عن كتاب مفتوح أمامه ، وسأل الرجل الذى اقتاد دارنى الى الداخل : « أيها المواطن ديفارج ، أهذا هو المواطن ايفريموند ؟ » ٠٠ فأجاب بالايجاب ! واذ ذاك وجه الى السجين بضعة أسئلة أجاب هذا عليها بأن سنه ٣٧ سنة ، وأنه متزوج ، وزوجته تقيم فى انجلترا ٠٠ وعندئذ فاجأه بالقول : « **ايفريموند ، انك ستنقل الى سجن (لا فورس)** » ٠٠ **فصاح دارنى : « ياللسماء ! بحكم أى قانون ، وأية جريمة ؟ »** ٠٠ **فأجابه الضابط وعلى فمه ابتسامة قاسية : « ان لنا قوانيننا الجديدة يا ايفريموند »**

ـ أرجو أن تلاحظ اننى جئت بمحض اختيارى استجابة

للخطاب الذى أمامك ، وهو صادر من أخ مواطن ٠٠ أفليست لى حقوق ؟

— ليس للمهاجرين حقوق يا ايفريموند !

وأعاد الضابط قراءة ما كتبه ثم سلم الورقة الى ديفارج قائلا: « حبس انفرادى » ، فطلب هذا الى السجين أن يرافقه ، فى حراسة اثنين من الوطنيين ٠ وبعد خروجهم سأل ديفارج سجينه : « هل أنت الذى تزوجت ابنة الدكتور مانيت ؟ » ٠٠ فأجاب دارنى وهو ينظر اليه مدهوشا : « نعم » ٠٠ واذ ذاك عرفه ديفارج بنفسه ، فسأله دارنى : « ألن تسمحوا لى فى السجن بأن أكتب رسالة الى العالم الخارجى ؟ أو تحاكموننى دون أن تتيحوا لى فرصة الدفاع عن نفسى ؟ »

— سوف ترى ٠ ولكن لا تنس أن هناك أناسا كان يزج بهم فى الماضى فى سجون أسوأ من هذه !

— يهمنى أن أمكن من الاتصال بمستر لورى مندوب بنك تلسون الموجود الآن فى باريس ، فهل تتكرم وتخطره بأننى ألقيت فى سجن (لافورس) ؟

— لن أفعل شيئا من هذا القبيل ٠٠ فأنا عدوك ، وواجبى انما هو نحو وطنى ومواطنى !

أحس دارنى بأن لا جدوى من تكرار الرجاء ، فسار الى جانب مرافقه وحارسيه صامتا ٠ **ولم يلفت مرورهم فى شوارع باريس انتباه أحد ، فقد صار نقل رجل أنيق الى السجن أمرا مألوفا كمنظر ذهاب عامل الى عمله ! كل ما حدث أن أدار البعض رؤوسهم ليلقوا نظرة على السجين ، وصب آخرون لعنتهم على « الارستقراطى » ، وفيما عدا ذلك لم يلتفت اليه أحد ٠ وفى ركن أحد الشوارع كان رجل يخطب فى جمع صغير فسمعه دارنى يقول ما فهم منه أن الملك قد ألقى فى السجن وان السفراء الاجانب قد غادروا باريس جميعا !**

❖

◆ **كان** سجن (لافورس) معتما كئيبا ، تفوح منه رائحة كريهة • وهناك سلم ديفارج سجينه الى مأمور السجن ، الذى أعطاه ايصالا باستلامه وهو يرغى ويزبد : « ياللشيطان ! ألن ينتهى سيل هؤلاء المهاجرين ؟ » فأجابته زوجته : « ينبغى أن نتذرع بالصبر يا عزيزى ، حبا فى الحرية •• »

ودق الحاكم جرسا فدخل ثلاثة رجال ، نظروا الى دارنى وأمعنوا النظر ، كى تنطبع صورته فى ذاكرتهم ! ثم قادوه عبر ممرات وسلالم حجرية ، وأبواب تفتح لهم وتعود فتغلق خلفهم •• حتى وصلوا الى حجرة كبيرة منخفضة السقف ، مزدحمة بالسجناء من الرجال والنساء • وكانت النسوة جميعا جالسات حول منضدة مستديرة ، منهمكات فى الحياكة أو شغل الابرة •• بينما وقف الرجال خلفهن أو راحوا يذرعون الحجرة ذاهبين آيبين • وكانوا مجموعة من أنبل عائلات فرنسا ، لكنهم حتى فى جو التعاسة والبؤس احتفظوا بآداب السلوك الرفيعة ، وتصرفوا فى السجن ـ بقدر استطاعتهم ـ مثلما كانوا يتصرفون فى قصورهم العظيمة !

ورحب القوم بزميلهم الجديد ، واستفسروا منه عن اسمه •• لكنهم سرعان ما رثوا لحاله وأبدوا أسفهم لفراقه حين علموا أن السلطات قررت أن تخصه بالحبس « الانفرادى » !••

وبالفعل سيق دارنى بعد لحظات الى سلم أدت به الى زنزانة ، رطبة باردة ، لكنها ليست معتمة • ولم يكن بالزنزانة سوى مقعد ومنضدة ، وحشية من القش فتشها السجان بعناية قبل خروجه •• وسمع دارنى المفتاح يدار فى القفل !

وبذلك صار وحيدا •• وحيدا في « لا فورس » !

الفصـــل السابع عشر

مستر لورى فى باريس

◆ **عندما** وصل مستر لورى الى باريس أقام فى جناح من فرع بنك تلسون هناك ، كى تسهل عليه تأدية أعماله ٠٠ وذات مساء كان جالسا بجوار المدفأة حين فتح عليه الباب فجأة واندفع منه شخصان ٠٠ شخصان كان ظهورهما غير متوقع بحيث أثار دهشته البالغة ٠٠ فصاح بهما : « لوسى ! مانيت ! ماذا هنالك؟ ماذا حدث ؟ » ٠٠ فهتفت لوسى تجيبه فى لوعة : « أواه ، زوجى العزيز ٠٠ زوجى ! »

ــ زوجك ؟ ٠٠ ماذا تعنين يالوسى ؟

ــ انه هنا فى باريس ! انه هنا منذ ثلاثة أيام أو أربعة ٠ جاء لينقذ شخصا فزجوا به فى السجن !

أفلتت من الشيخ المسن صرخة ، فى نفس اللحظة التى دق فيها جرس الباب الخارجى وسمعت ضوضاء أقدام ثم أقبلت الاصوات تتدفق على الفناء ٠٠ فاستدار مانيت نحو النـــافذة يتساءل عن سببها ، لكن لورى صرخ فيه محذرا : « لا تطل ! بربك لا تدعهم يرونك ! »

ــ يا صديقى العزيز ، انى كنت سجينا فى الباستيل ! أنا فى أمان هنا ، فان كل من يسمع بقصة سجنى لن يتردد فى بذل قصاراه لمساعدتى ٠ لقد منحتنى آلامى قوة الآن ، فهى التى يسرت وصولنا الى المدينة وحصولنا على أنباء ما وقع لتشارلس ٠ وقد كنت أقدر ذلك ، كنت موقنا من أننى سأتمكن من انقاذ تشارلس ٠٠ ولكن ما هذا الضجيج ؟

ــ لا تطل ، ولا أنت أيضا يا عزيزتى لوسى ٠٠ ولكن أين يوجد تشارلس ؟

ــ فى سجن (لافورس) !

ــ (لافورس) !

وطلب لورى الى لوسى أن تدعه وأباها على انفراد لبضع دقائق، وأدخلها غرفة مجاورة أغلق عليها بابها بالمفتاح ! ٠٠ ثم اتجه مع مانيت الى النافذة يطلان منها على الفناء ٠٠ **كان قد تزاحم فيه أربعون أو خمسون شخصا يسنون ما فى حوزتهم من مدى وسيوف وأسلحة أخرى على مسن كبير ٠ وكانت وجوه هؤلاء الرجال والنساء ضارية صارمة ، عليها طابع الدم !٠٠ فهمس لورى لمانيت : « انهم يذبحون المسجونين ٠٠ فاذا كنت واثقا من سلطانك فعرف هؤلاء بنفسك وأسرع الى سجن (لا فورس) ٠٠ قد تصل بعد الاوان ولكن لا تضيع دقيقة أخرى ! »**

ضغط الدكتور مانيت يد لورى شاكرا واندفع خارجا من الغرفة ، وحين عاد لورى الى النافذة رآه يشق طريقه بين أولئك القوم ، فيصغون اليه برهة ، ثم يتقدمهم الى الخارج وهم يتبعونه صائحين : « يحيا سجين الباستيل ! النجدة لصديقه فى (لافورس) ! فلننقذ السجين ايفريموند من (لافورس) ! »

واستدار لورى عن النافذة ليهرع الى لوسى ينبئها بما حدث – وكانت معها الآن طفلتها ومربيتها مس بروس – وبقى الجميع ساهرين طيلة الليل ينتظرون الانباء ، لكن انتظارهم كان عقيما ! ٠٠ وعند ظهر اليوم التالى انتقلت المرأتان والطفلة الى مسكن مجاور استأجره لهم لورى ، بينما عاد هو الى عمله فى المصرف ٠ وفى المساء جلس فى حجرته ينتظر جديدا من التطورات ، وقد استبد به قلق متزايد ٠٠ فلم يلبث أن سمع خطوات تصعد السلم ، ثم رأى أمامه رجلا يخاطبه باسمه ٠٠ وكان ديفارج ، يحمل رسالة قصيرة من مانيت جاء فيها : « **تشارلس فى أمان، لكنى لا أستطيع ترك مكانى بعد ٠ حامل هذه الورقة عنده رسالة من تشارلس الى زوجته ٠ دعه يقابل لوسى** »

وقاد لورى ديفارج الى الخارج ، وعند مرورهما بالفناء انضمت اليهما « مدام ديفارج » وامرأة أخرى من رفيقاتها تدعى « لافنجانس » – أى الانتقام ! – وقال ديفارج انهما جاءتا لتتعرفا

على الاسرة كى تقدما عونهما اليها عند اللزوم • وحين وصل الجميع الى المسكن وجدوا لوسى دون مربيتها وطفلتها • وكان معها « جيرى كرانشر » ساعى مستر لورى الذى أحضره معه من لندن • وكم كانت فرحة الزوجة حين فضت رسالة زوجها وقرأت فيها : « **حبيبتى •• تشجعى ، فانى بخير ، ولابيك هنا نفوذ كبير • لن تستطيعين الرد على هذه الرسالة • قبلى طفلتنا عنى ••** »

وبلغ من تأثر لوسى وفرحتها انها انحنت على يد مدام ديفارج فقبلتها ! وكانت باردة ، ثقيلة ، ولم تلبث أن انهمكت فى شغل الابرة • وكان فى ملمس تلك اليد ما بعث الى أوصال لوسى بقشعريرة جعلتها تشرد هنيهة وتنظر الى المرأة فى رعب ! •• وبعد أن نوديت مس بروس لتحضر ومعها الطفلة كى تراهما المرأتان ، قالت مدام ديفارج : «أهذه طفلته؟ » فلما أجابها لورى بالايجاب ، قالت لزوجها : « هذا يكفى ، فلنذهب •• »

لكن لوسى هتفت بها : « سوف تكونين رقيقة مع زوجى ، وستمكنينني من رؤيته اذا استطعت ؟ » •• فأجابتها المرأة فى جفاء : « لم أحضر هنا للمناقشة فى أمر زوجك ! » •• لكن لوسى لم تيأس مع ذلك ، فأردفت : « بصفتى زوجة وأما أتوسل اليك أن ترحمينى ، وأن تبذلى ما فى وسعك من أجل زوجى البرىء »

ـ وماذا بشأن جميع الزوجات والامهات اللواتى رأيناهن منذ كنا أطفالا ، واللواتى زج بأزواجهن وآبائهن فى السجون مرات متوالية ؟•• لقد عشنا طوال حياتنا نراهن يقاسين مذلة الفقر، والجوع ، والمرض ، والتعاسة ! واحتملنا ذلك زمنا طويلا •• فهل تعتقدين أن آلام زوجة أو أم واحدة تؤثر فينا الآن ؟

واستأنفت شغل الابرة ، ثم خرجت يتبعها زوجها ومرافقتها •• فقال لورى للوسى: «تشجعى ياعزيزتى، فنحن فى حال أفضل من كثير من التعساء •• اشكرى الله » •• فأجابته : « أرجو

أن لا أكون جاحدة لفضل الله ، لكن تلك المرأة المخيفة تلقى ظلا قاتما من اليأس على وعلى جميع آمالى »

❖

◆ **كانت** قد انقضت على ذهاب مانيت الى سجن (لافورس) أربعة أيام حين عاد منه أخيرا . لكنه لم يذكر لابنته انه خلال تلك الايام القليلة قتل الشعب ألفا ومائة رجـــل وامرأة من المسجونين العزل من السلاح ، من جميع الاعمار !.. لكن الاب المشفق باح للورى بكل ما حدث : لقد وجد فى السجن عنـــد وصوله جماعة من الثوار جالسين كهيئة محكمة ، فأعلن لهم أنه سجين سابق من ضحايا الباستيل . وتعرف ديفارج عليـــه ، فطالبهم مانيت بفحص حالة دارنى على الفور ، ووافقت المحكمة .. ولكن لسبب ما ـ لم يفهمه الطبيب ـ أبت المحكمة بعـــد المداولة اطلاق سراح السجين ، وان وعدت بأن تكفل سلامته فى السجن ولا تسوقه الى الموت مع الآخرين..فاضطر مانيت الى البقاء للسهر على حياة دارنى ، الى أن هدأت ثائرة الجماهير قليلا وزال الخطر !

وخلال فترة الانتظار فى الايام التالية استغل الطبيب نفوذه ـ كسجين سابق من معذبى الباستيل ـ استغلالا حكيما واسع النطاق ، حتى لقد اختاره القوم مفتشا طبيا لثلاثة سجون ، من بينها سجن (لافورس) .. وهكذا صار فى مقدوره أن يرى دارنى مرة كل اسبوع ويحمل أنبـــاءه الى لوسى . **لكنه برغم جهوده الجبارة فشل في اطلاق سراحه أو حتى اقنـــاع القوم بمحاكمته ، فقد كانت الاحداث أقوى منه : كان العهد الجديد قد بدأ ، فحوكم الملك وأعدم .. وخفق العلم الاسود فوق أبـــراج «نوتردام» ـ أكبر كنائس باريس ـ وامتلأت السجون بأشخاص لم يرتكبوا ذنبا .. وحصدت المقصلة رؤوس الاقوياء والابرياء وجميلات النساء !.. وبين كل مظاهر هذا الارهاب احتفـــظ الطبيب بثباته ويقينه من أنه سوف يوفق فى النهاية الى انقاذ رأس زوج ابنته ..**

الفصـــل الثامن عشر

محاكمـــة دارنى

◆ **وانقضى** عام وثلاثة شهور ، عاشتها لوسى وهى تتوجس شرا من كل ساعة تمر ، وتخشى أن يحمل لها الصباح التالى نبأ سقوط رأس زوجها تحت سكين المقصلة !٠٠ وكل يوم ، كانت عربات الموت تذرع الشوارع الحجرية حاملة كفايتها من الشحنات البشرية المسوقة الى المقصلة ٠٠ كانت السجون المعتمة الرهيبة تلفظ كل يوم الى ضوء النهار عشرات من العذارى الفاتنـــات ، والنساء اللطيفات ، ذوات الشعر الاسود والكستنائى والاغبر ٠٠ ومن الرجال ، الشيوخ والشبان ، الفقراء والنبلاء ٠٠ فكان الجميع يعبأون فى عربات تسير بهم الى حيث تلقيهم طعــاما للمقصلة !٠٠ والمقصلة جائعة على الدوام لا تشبع ٠٠ والشعار السائد : « الحرية ، والمساواة ، والاخاء ٠٠ أو الموت ! » لكن الموت كان أروج هذه الاربعة ، وأسهلها منالا !

وكانت محنة عصيبة بالنسبة للوسى ، بحيث لو انهــــا استسلمت لليأس لما بقيت على قيد الحياة ٠٠ لكنها كانت أمينة لواجباتها، تسهر على رعاية أبيها وطفلتها كما رعتهما فى انجلترا٠ وتلقن « لوسى الصغيرة » دروسها بانتظام كما لو كانوا جميعا آمنين فى دارهم السعيدة ٠ وقد كان لها فى هذا التفاؤل عذرها فى الواقع ، فان أباها بات يحظى بحب الثوار واحترامهم ٠ وكلما كانت تغلبها مخاوفها فتعرب له عن انزعاجها كان يجيبها فى حزم يوحى بالثقة : « لا يمكن أن يصيب تشارلس شىء بغير علمى ٠ وانى لموقن من استطاعتى انقاذه فى النهاية ! »

وذات يوم جاء الوالد ينبىء ابنته بأنه دبر فرصة يراها زوجها فيها من احدى نوافذ السجن ، اذا وقفت فى بقعة من الشارع المواجه يحددها لها ، وان كانت هى لن تستطيع أن تراه بسبب

الظلمة فى داخل السجن ! ٠٠ ومنذ تلك اللحظة صارت لوسى تمضى كل يوم ، أيا كانت حالة الطقس ، الى حيث تقضى ساعتين ـ بين الرابعة والسادسة ـ واقفة فى ركن شارع قاتم قذر ، بجوار كوخ قاطع أخشاب ٠ وفى الايام التى يعتدل فيها الطقس كانت تأخذ معها « لوسى الصغيرة » أيضا ٠٠

وكان قاطع الاخشاب فى ماضى حياته عاملا من عمال الطرق ، ثم اشتغل الآن بقطع الاخشاب للوقود ٠٠ فلما رأى المرأة تحضر الى المكان يوما بعد يوم ، جرؤ أخيرا فحياها ٠ ثم أفهمها بالاشارة انه قد استنتج سر حضورها ، لكنه قال يطمئنها : « ليس هذا من شأنى على أى حال » ثم واصل عمله ٠٠ وفى اليوم التالى أحضرت طفلتها معها، فداعبها الرجل مداعبةقاسية أثلجت الدم فى عروق الام ، اذ راح يمثل لها بفأسه ـ أو مقصلته الصغيرة كما سماها ـ كيف تجهز سكين المقصلة على رقاب ضحاياها ! فتوجست الام ارتيابا فى الرجل واضطرت الى شراء سكوته بالمال بين الحين والآخر ٠ وأحيانا كانت تلمحه يراقبها من طرف خفي ، فاذا فاجأت نظرته عاد الى قطع أخشابه مرددا عبارته المألوفة « ليس هذا من شأنى ! »

وذات يوم من أيام ديسمبر ، بينما كانت لوسى فى موقفها المعتاد جاءها والدها يقول لها : « انى قادم من عند تشارلس ، وهو فى طريقه الآن الى حيث توجد النافذة ٠٠ فيمكنك أن تبعثى اليه بقبلة على أطراف أصابعك ، سيما وانه لا يوجد هنا الآن من يراك ! » ٠٠ فألصقت لوسى أناملها بشفتيها وأرسلت الى زوجها عدة قبلات ، دون أن تراه ٠٠ وفى تلك اللحظة سمع الاثنان خطوات فوق الجليد ، فاستدارا ليريا امرأة تمر عن كثب منهما ٠٠ وكانت مدام ديفارج !

وبادرها مانيت بالتحية ، فردتها له ومضت فى طريقها ٠٠ مضت كشبح قاتم يلقى ظله على الجليد الناصع !٠٠ وانصرف الطبيب وابنته على الاثر ، وفى الطريق قال لهـا مستبشرا :

« عندى لك نبأ هام : ان دارنى سيمثل أمام المحكمة غدا ، فى سجن (الكونسيير جيرى) ! » ٠٠ واذ اعترت لوسى رجفة من هذا النبأ أردف والدها يطمئنها : « ضعى ثقتك فى يا عزيزتى، وسوف يعود اليك زوجك بعد ساعات ٠ والآن على أن أنطلق لمقابلة لورى »

◆ **كان** لورى ما يزال فى مكتبه بالبنك ، يسهر على رعاية مصالح المهاجرين ٠٠ وكان بصحبته فى تلك الساعة زائر مجهول يحرص على أن لا يراه أحد ! فلما سمع الزائر ـ الذى لم يكن سوى سيدنى كارتون ـ خطوات مانيت ولوسى تقترب نهض على عجل وسارع بالاختباء فى حجرة مجاورة ٠ ومن مخبأه سمع لورى يرحب بصديقيه ، ثم يردد هذه العبارة : « نقل الى سجن (الكونسيير جيرى) وسيحاكم غدا ! »

كانت تقرأ كل مساء فى كل سجن قائمة بأسماء نزلائه الذين تقررت محاكمتهم فى الصباح التالى ، ثم ينقلون من فورهم الى سجن (الكونسيير جيرى) حيث ستجرى المحاكمة ٠٠ وكان دارنى قد نقل مؤخرا من زنزانته الى عنبر كبير ، فأتيح له أن يسمع القائمة تتلى أمامه أكثر من مرة ، وفى كل مرة كان يعقبها نقل مئات من المسجونين ، الى غير رجعة ٠٠ وأخيرا سمع اسمه هو ، يتلى مع اثنين وعشرين اسما آخر : « تشارلس ايفريموند، المدعو دارنى » !٠٠ وسرعان ما أوقف الذين نودى عليهم فى صف واحد ، وبعد أن ودعوا رفاقهم على عجل نقلوا الى سجن الكونسيير جيرى ـ عبر طريق قصير معتم ـ وهناك أمضوا فى زنزاناته الرطبة ليلة طويلة باردة ٠٠ ليلتهم الاخيرة !

وفى الصباح أخرج من السجن خمسة عشر سجينا حوكموا قبل أن يجىء دور دارنى ، ولم تستغرق محاكمتهم جميعا أكثر من ساعة ونصف ساعة ، أرسلوا بعدها كلهم الى المقصلة !٠٠ وأخيرا استدعى دارنى للمثول أمام القاضى والمحلفين ـ الذين كانوا يضعون على رؤوسهم قبعات من الريش ! ـ وازدحمت

قاعة المحاكمة بالمتفرجين ، من الرجال والنساء ، وكانوا من أشرس وأقسى وأحط أهل باريس ٠ وقد ألفوا أن يتتبعوا كل محاكمة عن كثب ، بحيث كثيرا ما عطلت صيحاتهم العالية بالتأييد أو الاعتراض ـ أعمال المحكمة !٠٠ كانوا يقابلون كل حكم بالاعدام بعاصفة من صيحات التهليل الضارية ٠٠ وكانوا جميعا مسلحين بمختلف الاسلحة ، يضعون على رؤوسهم قبعات حمراء ٠ بل ان بعض النسوة منهم كن يحملن المدى والسكاكين، والبعض ينهمكن فى أشغال الابرة ، والبعض يأكلن ويشربن وهن يتتبعن المحاكمات !٠٠ وبين أولئك المشتغلات بالابرة كانت توجد امرأة بادية الصلابة وقوة الشكيمة ،تجلس بجوار ديفارج وتهمس له بين الحين والآخر ٠٠ ولم تكن سوى زوجته !٠٠ وتحت منصة الرئيس جلس الدكتور مانيت فى سترته القاتمة، وفى ركن آخر كان مستر لورى ٠٠

ونودى دارنى ، ووجهت اليه تهمة هجر وطنه ، التى يقضى القانون الجديد بالمعاقبة عليها بالاعدام ٠٠ وصاح النظارة : « خذوا رأسه ٠٠ انه عدو للجمهورية ! » فأسكتهم الرئيس طالبا الاصغاء الى دفاع المتهم ، الذى قال : « انى لست مهاجرا بالمعنى الذى يقصده القانون ، فلقد تنازلت عن لقب المركيز لانى أبغضته ، وذهبت لاعيش فى انجلترا من عرق جبينى لانى أنفت العيش من عرق فقراء فرنسا المضطهدين ٠٠ »

ـ وما هو دليلك على ما تقول ؟

ـ شهادة الشاهدين « تيوفيل جابيل » و « ألكسندر مانيت »

ـ وهل تزوجت فى انجلترا ؟

ـ نعم ، لكنى لم أتزوج انجليزية ، بل مواطنة فرنسية !

ـ مواطنة فرنسية ؟ ما اسمها واسم أسرتها ؟

ـ اسمها لوسى مانيت ، وحيدة الدكتور مانيت صديق الجمهورية المعروف للجميع ، وسجين الباستيل القديم !

كان لهذا الجواب ولاسم الدكتور مانيت أحسن الاثر فى نفوس

النظارة ، فانبعثت فى جو القاعة صيحات التهليل والفرح ٠٠ وتبدلت نظرات الكراهية التى كانت توجه للمتهم منذ دقائق ، الى ابتسامات عطف !٠٠ ثم سألته المحكمة لماذا لم يعد الى فرنسا قبل الآن ، فأجاب بأنه لم يكن له فيها عمل يرتزق منه ، وانه عاد هذه المرة كى ينقذ حياة مواطن فرنسى ، ولو تعرضت حياته هو للخطر ٠٠ فهل هذه جريمة فى نظر الجمهورية ؟

وتعالت الصيحات بقوة : «كلا!» ، واستمر النظارة يرددون هذه الصيحة حتى بحت أصواتهم ٠٠ ثم استدعى الشاهد الاول « جابيل » فأكد ما ورد فى خطابه للمتهم ، وأضاف انه قد زج به فى سجن (آباى) بغير محاكمة ولم يفرج عنه الا بعد القبض على ايفريموند !٠٠ ثم سمعت شـــهادة الدكتور مانيت فكان لشخصيته المحبوبة واجاباته الصادقة أحسن الوقع فى نفوس الجميع ، وخاصة حين قرر ان دارنى قد حوكم فى انجلترا بتهمة التجسس لحساب وطنه فرنسا ، واستشهد فى هذا الصـــدد بالشاهد الانجليزى مستر لورى الذى حضر تلك المحاكمة !

وبعد سماع كل هذه الاقوال قرر المحلفون الاكتفاء بها ، ثم أعطوا أصواتهم بصوت مسموع واحدا فى اثر الآخر ، وقد أخذ الجمهور يستقبل اعلان كل صوت بصيحة تهليل ٠٠ وكانت الاصوات كلها فى صالح المتهم ، فأعلن الرئيس اطلاق سراحه !

ضجت القاعة بصيحة فرح هائلة ، وانهمرت دموع التأثر من النظارة بلا حساب ، وتزاحم مئات منهم حـــول دارنى ، فلم يستطع التخلص منهم الا بصعوبة ـ ومع ذلك فقد كان هؤلاء أنفسهم على استعداد لانتزاعه من حراسه وتمزيقه اربا فيما لو صدر الحكم ضده ! ـ وصحب دارنى الى الخارج كثيرون من الحاضرين ، وانضم اليهم فى الشارع مئات آخرون ، وقد أخذ الجميع يهتفون صاخبين ٠٠ ثم أجلسوه على مقعد وحملوه على أكتافهم فى مظاهرة ضارية سارت به فى الشوارع والجماهير تنضم الى موكبها من كل جانب ، حتى بلغت مسكن الدكتور

مانيت . وهناك أنزل المتظاهرون دارنى فانطلق يصعد السلم قفزا الى حيث تنتظر زوجته .. وحين رأته الجماهير يفتح لها ذراعيه ، فتسقط بينهما فاقدة الوعى ، قبل الرجال والنساء بعضهم البعض فرحين وبدأوا يرقصون جميعا فى الفناء الخارجى !

ولم تلبث لوسى أن أفاقت ، فوقف الزوجان يتبادلان نظرة طويلة .. ثم همس دارنى لزوجته فى نغم ناعم : « لوسى ، يا أعز مخلوقة .. أخيرا عدنا آمنين ! » .. فأجابته : « حبيبى تشارلس ! فلنتوجه بالشكر لله الذى ردك سالما من كل تلك المخاطر » .. وأحنيا رأسيهما يصليان ، ثم أقبلت مس بروس تحمل الطفلة فتعلقت هذه برقبة أبيها وأبت أن تدعها !

وحين وصل الدكتور مانيت ولورى يلهثان بادرا بتهنئة دارنى بحرارة على نجاته ، فالتفت هو الى زوجته وقال فى تأثر : « والآن ياعزيزتى فلنشكر أباك ، فما كان فى امكان رجل آخر فى فرنسا بأسرها أن يفعل لى مثلما فعل ! » .. **فاتجهت لوسى الى أبيها وأراحت رأسها على صدره ، دون أن تنطق بكلمة ، مثلما وضعت رأسه على صدرها فى باريس ذات يوم..منذ دهر طويل!**

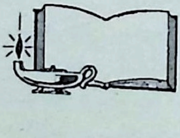

الفصل التاسع عشر

طرقة على الباب

◆ برغم نجاة دارنى ، ظل قلب لوسى طيلة النهار مليئا بالمخاوف ·· ففى كل يوم كان يساق الى الموت أبرياء مثل زوجها ، أعزاء على زوجاتهم مثلما هو عزيز عليها !·· لكن أباها لم يشاطرها مخاوفها ، فقد أكسبه نجاحه فى مهمته ثقة بنفسه وبنفوذه ·· وفى المساء ، فيما كانت مس بروس تتأهب للخروج بصحبة الساعى جيرى كرانشر لشراء بعض المأكولات والحاجيات للاسرة من الحوانيت القريبة ، اقتربت من الطبيب تسأله هامسة : « أما من أمل فى أن نغادر هذه المدينة قريبا ؟ » فأجابها : « أخشى أن يكون هذا متعذرا ، فمن الخطر على تشارلس أن يحاول المهاجرة مرة أخرى ! » ·· وعلى أثر ذلك خرجت مس بروس وجيرى ، تاركين لوسى وزوجها وأباها والصبية بجوار المدفأة المتوهجة · وكان كل شىء هادئا ، وقد هدأت مخاوف لوسى عن ذى قبل ·· وفجأة صاحت الزوجة : « ما هذا ؟ » ·· فقال والدها وهو يربت على يدها بيديه : « يا عزيزتى ·· اهدئى ! »

– خيل الى اننى سمعت خطوات غريبة تصعد السلم !

– يا عزيزتى ، ان الهدوء تام فى السلم ··

لكنه لم يكد ينطق بعبارته حتى سمعت طرقة قوية على الباب! ·· فتناول الطبيب المصباح ومضى ليفتح للطارق ، بينما جلست لوسى تنتظر والرعب ينشرها ويطويها · وفوجىء مانيت حين فتح بأربعة رجال خشنى المظهر مسلحين بالسيوف والمسدسات ، يضعون على رؤوسهم قلنسوات حمراء !·· وقال أولهم وهم يخطون الى الداخل : « أين المواطن ايفريموند ، الملقب بدارنى ؟ » ·· فقال دارنى : « من الذى يطلبه ؟ »

ـ أنا أطلبه ، نحن نطلبه • اني أعرفك يا ايفريموند ، فقد رأيتك هذا الصباح فى المحكمة • لقد أصبحت سجين الجمهورية من جديد !

وأحاط به الاربعة حيث وقف وقد تعلقت به زوجته وطفلته •• فتساءل دارنى : « أوضح لى لماذا تقبضون على من جديد ؟ » •• لكن الرجل أجابه : « حسبك أن تعود معنا ، وغدا سوف تعرف •• فانك ستحاكم غدا ! »

بدا الدكتور مانيت وكأنه تحول الى حجر ، فقد وقف والمصباح فى يده كما لو كان تمثالا ! فلما سمع هذه العبارات وضع المصباح جانبا وواجه المتكلم : « أتعرف من أنا ؟ » فأجابه : « نعم أعرفك أيها المواطن الطبيب » •• واذ ذاك أردف مانيت : « هل لك اذن أن تجيبه من أجلي : كيف حدث هذا ؟ »

ظهر التردد على الرجل برهة ، لكنه قال أخيرا : « لقد اتهمه بعض أهالى حى سان انطوان •• »

ـ بمـــاذا ؟

ـ لا تسألنى • هيا يا ايفريموند ، فنحن فى عجلة ••

ـ لحظة واحدة •• هل لى أن أعرف من الذى اتهمه ؟

ـ المواطن والمواطنة ديفارج •• وشخص آخر

ـ من هو ؟

ـ غدا سوف تعرف الجواب !

الفصل العشرون

مس بروس تعثر على أخيها

◆ **واذ** كانت مس بروس تجهل كل شيء عن الحوادث التي تجرى في البيت ، فقد أخذت طريقها خلال طرقات الحي الضيقة، وهي تفكر في الاشياء التي عليها أن تبتاعها للاسرة ، وجيري الى جوارها يحمل السلة .. وبعد أن اشترت بعض الاطعمة وزيتا للمصباح تذكرت أنها تبغى شراء شيء من النبيذ أيضا ، لكنها تجنبت دخول الحانات التى وجدتها مزدحمة بالشاربين الصاخبين .. وأخيرا عثرت على حانة هادئة ليس فيها غير نفر قليل ، فدخلت وأوصت على طلبها .

وفيما كان البائع يعبىء لها النبيذ ، مر بها واحد من رواد الحانة كان قد نهض لينصرف .. فلم يكد يحاذيها وتحين منها نظرة اليه حتى أطلقت صرخة مفاجئة ، التفتت اليهما على أثرها جميع الانظار !.. ورغم التناقض الواضح بين الرجل الذي كان مظهره يوحى بانه فرنسي ، والمرأة التي ينطق شكلها بأنها انجليزية ، فقد رآهما الحاضرون يتحدثان باهتمام .. كانت مس بروس تهتف بالرجل ، بالانجليزية : « اوه ، سولومون ،

عزيزى سولومون .. هل وجدتك أخيرا بعد فراق السنوات الطويلة ؟ » .. فأجابها الرجل من بين أسنانه غاضبا مفزوعا : « صه ! لا تناديني باسم سولومون ، هل تبغين أن تكونى السبب فى هلاكى ؟ »

ـ أخى ، أخى .. كيف توجه الى هذا السؤال القاسى ؟

ـ امسكى لسانك ، وتعالى نتحدث فى الخارج اذا أردت

ثم وجه الرجل الى الحاضرين بضع كلمات بالفرنسية عادوا على أثرها كل الى حاله ، ثم خرج مع شقيقته وجيرى الى أقرب ركن معتم من الطريق ٠٠ وهناك سألها : « والآن، ماذا تريدين؟» ٠٠ فقالت المسكينة : « يا لك من قاس عاق ٠ كيف تكلمنى بهذه اللهجة ؟ » ٠٠ فانحنى ورشق خدها بقبلة خاطفة ، بينما راحت هى تمسح دموعها فى تأثر صامت ٠٠ واستطرد الشقيق يطيب خاطرها : « انى لم أفاجأ برؤيتك لاننى كنت أعلم بوجودك فى باريس ، فعملى يقتضينى معرفة كل الغرباء الوافدين الى هنا ٠ فاذا كنت لا تبغين تعريض حياتى للخطر فامضى فى طريقك بأسرع ما يمكن ، ودعينى أنا أمضى فى طريقى ٠ اننى مشغول للغاية ، فأنا الآن موظف حكومى ! »

واذ تأهب للانصراف استوقفه جيرى ليذكره بأنه رآه فى لندن من قبل ، لكن اسمه لم يكن « سولومون » ولا « بروس »، وانما كان يبدأ ب « جون » ٠٠ جون ٠٠ جون ماذا ؟

وفاجأهما صوت ثالث يجيب : « جون بارساد ! » ، فهتف جيرى : « بالضبط ٠٠ بارساد ! هذا كان اسمك » ٠٠ بينما أردف القادم ـ سيدنى كارتون ـ يحدث مس بروس وقد عقد يديه خلف ظهره وبدا عليه الهدوء التام : « لا تنزعجى يا عزيزتى لعدم ظهورى فى محيطكم فقد كنت فى زيارة مستر لورى أمس واتفقنا على أن لا أظهر الا بعد مرور العاصفة ٠ وقد جئت الآن

لأتحدث مع أخيك ٠٠ بودى لو كان له عمل أفضل من التجسس لحساب البوليس ! »

ازداد شحوب وجه الجاسوس وحاول أن يحتج : « كيف تجرؤ ٠٠٠؟ » لكن سيدنى قاطعه : « سأخبرك : لقد رأيتك منذ ساعة خارجا من سجن (الكونسيير جيرى) ، فأدهشنى ذلك وأنا الذى يعلم انه قد كان لك ضـــلع فى محاكمة دارنى الاولى فى لندن ! ومن هنا تبعتك الى الحانة ، وهناك عرفت من الاحاديث المتبادلة كل شىء عنك وعن طبيعة عملك ٠ وقد انتهيت من ذلك على مهل الى قرار ٠٠ »

ـ وما هو ؟

ـ من الخطر التحدث عنه هكذا فى الطـريق ، فهل لك أن تصحبنى الى مكتب مستر لورى ، لبضع دقائق ؟

ـ واذا رفضت ؟

ـ أعتقد أنه من الخير لك أن تحضر ، والا ندمت !

وهنا التفت الجاسوس الى أخته وعنفها غاضباً : « كل هذا بسببك ! » ٠٠ فقال له سيدنى : « البتـــة ، بل ان احترامى لشقيقتك هو الذى يجبرنى على التأدب معك !٠٠ والآن أقترح أن نوصل أختك أولا الى ناصية الشارع الذى تقيم فيه ٠٠ هات ذراعك يا مس بروس »

وفى الطريق رفعت مس بروس عينيها الى كارتون متوسلة وناشدته أن لا يلحق بشقيقها أى أذى !٠٠ ثم تركها الثلاثة عند ناصية الشارع وواصلوا سيرهم الى مسكن مستر لورى ، الذى كان قد فرغ من تناول عشائه وجلس أمام المدفأة يتأمل ألسنة اللهب ويستعيد ذكرياته .. فعرفه كارتون ببارساد ، وصلته بمس بروس ، وتذكر لورى لدى رؤيته وســماع اسمه انه الجاسوس الذى شهد ضد دارنى فى محاكمته الاولى ، فبدا عليه الامتعاض من زيارته ! ٠٠ وعندئذ أضاف كارتون بلهجة مغايرة:

« أصل الآن الى الجزء السيىء من الانباء : لقد قبض على دارنى مرة أخرى ! »

ـ ماذا تقول ؟ لقد تركته منذ ساعتين فقط حرا آمنـا فى بيته ، وكنت الآن على وشك العودة اليه !

ـ لقد سمعت بارساد يقول فى الحانة انه رأى دارنى يساق الى السجن منذ قليل •• وسوف يحاكم غدا بغير ابطاء ، أليس كذلك يا بارساد ؟

ـ أعتقد ذلك ••

ـ لكن الموقف مختلف فى هذه المرة ، ومما ينذر بالشر أن مانيت لم يستطع الحيلولة دون هذا القبض ! على أية حال نحن فى عهد خطر للغاية ، ويتطلب منا حيلة لا تقل عنه خطرا •• فليستخدم مانيت حيلته وأستخدم أنا حيلتى ونرى ما يكون • واذا حدث وتحقق أسوأ الفروض فسوف أحتاج الى معونة صديق تكون له صلة بسجن (الكونسيير جيرى) حيث سيحاكم دارنى غدا . سوف ألجأ الى معونة صديقنا مستر بارساد . الا الامر أشبه بمباراة فى لعب الورق بينى وبينه فاذا ربحت المبـاراة وثقت من معونته !

فقال الجاسوس : « ستلزمك أوراق ممتازة للغاية كى تربح هذه المباراة ! » •• فأجاب كارتون : « انى سأكشف لك أوراقى حالا . . مستر لورى ، أنت تعلم مكمن ضعفى ، فهلا قدمت لى كأسا من (البراندى) ؟ »

وضعت أمامه زجاجة الخمر ، فجرع كأسا ثم نحى الزجاجة بعيدا وهو ساهم •• ثم استطرد فى بطء وكأنه لاعب يفحص الاوراق التى فى يده : « مستر بارساد ، انك جاسوس للبوليس، ورسول للجان الجمهورية ، ومخبر سرى ، وقد كنت فى الماضى جاسوسا فى خدمة الحكومة الانجليزية ـ وهذه ورقة نافعة فى يدى ، فان من يسمع بذلك سـوف يرتاب فى أنك ما تزال

تتجسس لمصلحة حكومة انجلترا ضد مصالح الجمهورية الفرنسية .. أرأيت أوراقى يا مستر بارساد ؟

ـ وكيف تنوى أن تستخدم هذه الاوراق فى اللعب ؟

ـ سأبدأ بأقوى ورقة فى جعبتى : سأخطر أقرب لجنة من لجان الجمهورية انك عدو للجمهورية ، عدو لفرنسا .. والآن أنظر فى أوراقك وتدبر ما تستطيع استخدامه منها .. هلا أسرعت ؟

وجذب زجاجة الخمر فملأ منها كأسا جرعه ثم أردف : « تدبر أوراقك جيدا ... لا بأس ، خذ الوقت الذى يلزمك ! » .. ونظر الجاسوس في أوراقه فاذا كلها هزيلة خاسرة ، بل ان بينها أوراقا خاسرة أخرى كان كارتون نفسه يجهلها : فلقد فصل بارساد من عمله فى انجلترا كجاسوس لبوليسها ، لتلبسه بالكذب .. فعبر البحر ليحترف نفس المهنة فى فرنسا ، بادئا بالتجسس على مواطنيه الانجليز لحساب الحكومة الفرنسية ، ثم صار جاسوسا على الفرنسيين أنفسهم حين استخدمته الحكومة الملكية للتجسس على حى سان انطوان وأسرة ديفارج .. لكنه فشل مع الاسف الشديد ، بفضل دهاء تلك المرأة التى لا تكف عن شغل الابرة ، والتى طالما رآها بعد ذلك تشى بمن تضمنتهم قائمتها فيرسلون فورا الى المقصلة ! والجاسوس أكثر الناس تعرضا للخطر ، اذ تكفى مجرد الشبهة لوضع حد لحياته ! حقا ان أوراق بارساد كلها خاسرة ..

واستبطأ كارتون جوابه ، فانبرى له : «انك تبدو غير راض عن اوراقك ! ؟ .. فهل تعطينى معونتك ، أم ستضطرنى للذهاب الى اقرب لجنة للجمهورية ؟.. امامك دقائق معدودة تنتهى فيها الى قرار !»

وأخرج كارتون ساعته فنظر فيها .. واذ ذاك سارع بارساد يناشده : « لكن احترامك يا سيدى لاختى لا بد سيمنعك من .. » فعاجله كارتون على الفور : « ان الطريقة الوحيدة التى

اظهر بها احترامى لاختك هى ان اخلصها منك ! »

لاذ الجاسوس بالصمت ، وقد انهارت ثقته بنفسه وأحس انه غدا تحت رحمة الآخر تماما ! وفجأة استدرك كارتون : «اعتقد ان عندى أيضا ورقة أخرى : ذلك الجاسوس الاخر الذى كنت تتحدث اليه فى الحانة ، من يكون ؟ »

ـ فرنسى لا وزن له ..

ـ ربما ، لكنى اذكر وجهه . انه يتكلم الفرنسية بلكنة اجنبية .. انا واثق اننى رأيته من قبل.. آه ، وجدتها (وضرب المنضدة بيده) : انه المدعو «كلاى» ، الذى زاملك فى الشهادة ضد دارنى فى محاكمته الاولى !

ـ انت مخطىء .. فقد مات كلاى ودفن فى لندن

وهنا هب «جيرى كرانشر» واقفا وصاح متدخلا فى الحديث:

« ان لى علما بشىء فى هذا الصدد ، أعلم ان كلاى لم يدفن ، وان جنازته تلك كانت وهمية . لم يكن فى قبره جثة ما، وتابوته انما كان يحتوى على حجارة ! وقد دبرت تلك الجنازة كيما يعتقد الجميع ان الرجل قد مات فيكفون عن البحث عنه ! »

ابيض وجه بارساد لدى افتضاح هذه الخدعة ، حتى حاكى وجوه الموتى ، وفغر فاه دون وعى من وقع المفاجأة .. بينما استطرد كارتون : « ربما كان من الاوفق اذن ان اقول ان فى سجون باريس جاسوسين من خصوم الجمهورية .. يا لها من ورقة اخرى رابحة . هل لك ان تسرع فى اللعب يا مستر بارساد ؟

ـ كلا ، انى اسلم لك .. واعترف اننا كنا مكروهين فى انجلترا فى المدة الاخيرة بحيث لم يكن امامنا سوى الهرب . وقد تمكنت انا منه بصعوبة ، اما (كلاى) فما كان فى الامكان ان يفر لو لم تدبر تلك الجنازة الوهمية ! لكن اللغز الذى يحيرنى هو كيف وقف هذا الرجل على السر ؟

فقال جيرى : «دعك من هذا . المهم اننى وقفت عليه وهذا يكفى .. ولتكن الجنازة القادمة التى تحضرانها انت وكلاى جنازة حقيقية .. وآمل ان تكـون جنازتك ! » .. لـــكن الجاسوس استدار عنه الى كارتون قائلا له : «ان موعد نوبتى فى العمل قد اقترب وعلى ان اذهب ، فماذا تريدنى ان افعل؟ تذكر انك لا ينبغى ان تطلب الى شططا يعرض رأسى للخطر !»

ـ كلا ، لن أغالى فى طلبى . انك تعمل فى سجن (الكونسيير جيرى) ، وتستطيع دخوله فى أى وقت !؟

ـ دعنى اطمئنك الى ان الفرار مستحيل !

ـ ومن اشار الى الفرار ؟ أجبنى : هل تملك دخول السجن وقتما تشاء ؟

ـ والخروج منه ايضا وقتما أشاء !

ـ تعال معى اذن يا مستر بارساد الى الحجرة المجاورة كى نتفاهم على انفراد !

الفصل الحادى والعشرون

سيدنى كارتون يرسم خطتـــه

◆ **لم يكد** كارتون وبارساد يدلفان الى الغرفة المجاورة حتى نظر مستر لورى الى جيرى نظرة شك وسوء ظن ، وابتدره :

ــ جيرى .. تعال !

فتقدم جيرى منه ، وكان يسير وقد سبق احد كتفيه الآخر!

ــ ماذا تفعل الى جانب عملك كساع ؟ انى ارتاب يا جيرى فى انك تستغل بنك تلسون العظيم ستارا تخفى وراءه عملا آخر مريبا .. فاذا صح هذا فلا تنتظر منى ان اتستر عليك !

فقال جيرى : « انى آمل يا سيدى أن لا تمس بالاذى رجلا فقيرا مثلى .. فان الاطباء يحتاجون الى جثث يشرحونها لاستيفاء دراساتهم ، ولابد من شخص يقوم بهذا العمل ! »

فصاح مستر لورى : « اخ !.. ان منظرك يثير اشمئزازى »

ــ لا تقس يا سيدى على ، فقد كنت استطيع ان اخفى السر عنك . انى لم ابح به الا من اجل قضية أسمى !

فقال مستر لورى : « هذا صحيح ، فكفى . قد اظل صديقا لك اذا حرصت على حسن السلوك فى المستقبل .. »

وفى هذه اللحظة عاد سيدنى كارتون والجاسوس الى الغرفة، فقال الاول : « الى اللقاء يا مستر بارساد .. لقد اتفقنا ، فلم يعد لك ما تخشاه من جانبى !»

واذ انصرف بارساد ، سأل مستر لورى كارتون عما فعله .. فاجاب : « لم افعل شيئا ذا بال .. دبرت فقط ان احاول رؤية دارنى فى السجن ، اذا استلزم الامر »

فقال لورى : « لكن ذلك وحده لن ينفعه .. »

ــ انى لم اقل انه سينفعه !

جلس مستر لورى ساهما يحدق فى النار . لقد أضحى الآن شيخا مسنا ، يفيض قلبه اشفاقا على لوسى وقلقا على زوجها .. وتساقطت دموعه !

فقال كارتون : « لا تقل للوسى شيئا عن هذا التدبير ، فقد تشغل فكرها بألف سبب وسبب له ، وكل سبب سوف يزيد من متاعبها . انى افضل ان لا اراها على الاطلاق ، ففى استطاعتى ان اقوم باية خدمة صغيرة استطيع اداءها ، بغير هذا اللقاء .. انك ذاهب اليها فيما أحسب . لابد انها الليلة مثال للتعاسة ! »

ــ انى ذاهب اليها فورا ..

ــ يسرنى ذلك ، فانها تعتمد عليك الى حد كبير .. ترى كيف تبدو هذه الايام ؟

ــ انها تبدو قلقة وشقية ، ولكن جميلة للغاية

فتنهد كارتون تنهدة طويلة ، وسكت لحظة .. ثم استطرد: « هل انتهت مهمتك هنا فى باريس ؟ »

ــ نعم . لقد فعلت كل ما استطيع فعله هنا .. وكنت آمل ان اترك الآخرين فى أمان تام .. لقد حصلت على تأشيرة السفر وكنت على اهبة الرحيل ..

وران الصمت على الرجلين لحظات .. ثم قال كارتون : « ان لك لحياة طويلة تملك ان تستعيد ذكريات ما مضى منها .. »

ــ انى اليوم فى عامى الثامن والسبعين

ــ وقد عشت طيلة حياتك نافعا ، موضع ثقة ، ومحترما ؟

ــ انى اعمل منذ كنت صبيا .. لكنى لست متزوجا ، وأحس اليوم بشىء من الوحدة .. فليس لى من يبكى على !

ــ أو لن تبكى عليك لوسى ؟.. وطفلتها ؟

ــ نعم ، نعم ، حمدا لله .. انى لم اقصد ما قلته فى الواقع

ــ لو انك لم تظفر بحب الآخرين واحترامهم طيلة حياتك .. لو انك لم تفعل شيئا طيبا يتذكرك الناس به .. أفما كانت

اعوامك الثمانية والسبعين تغدو ثمانية وسبعين لعنة !؟

فقال لورى : « بلى ، أعتقد ذلك .. »

وأنهى كارتون الحديث عند هذا الحد بان نهض واقفا ليعين مستر لورى على ارتداء معطفه .. ثم قال له : « سأمشى معك حتى باب بيتها .. وغدا نلتقى فى المحكمة . اتكىء على ذراعى يا سيدى »

وهبطا السلم ثم دلفا الى الطريق .. حتى بلغا باب حديقة البيت ، فدخل لورى .. اما كارتون فقد تريث برهة ، ثم استدار الى الباب فلمسه .. محدثا نفسه : « انها تخرج منه كل يوم فى طريقها الى السجن .. وتطأ هذه الاحجار .. فلأطأها مثلها ! »

❖

◆ **كانت** الساعة قد أوفت على العاشرة مساء عندما وقف كارتون امام بناء سجن (لافورس) .. ثم اخرج ورقة فكتب عليها بالقلم بضع كلمات على ضوء مصباح قريب ، وبعد ذلك مضى عبر شوارع معتمة قذرة حتى وصل الى حانوت لبيع الادوية ، فقدم الورقة لصاحب الحانوت ..

وقال له الرجل وهو يناوله حزمة صغيرة : « انك ستكون حريصا فى استعماله ايها المواطن !.. هل تعرف مفعوله ؟ »

ــ تمامـــا

ودس الحزمة فى جيبه بعناية ثم غادر الحانوت .

وقضى كارتون الليلة يتسكع فى شوارع المدينة .. فلمـا اشرقت الشمس غلبه النعاس على ضفاف السين .. وحين استيقظ وقف برهة يتأمل ماء النهر ، ثم قفل راجعا الى مسكن مستر لورى .. لكن الشيخ الطيب كان قد انطلـق بالفعل الى المحكمة .. فتناول كارتون قدحا من القهوة وشيئا من الطعام ، ثم اغتسل ومضى بدوره الى مكان المحاكمة .. وهناك وجد مستر لورى ، والدكتور مانيت ، وقد جلست لوسي الي جوار ابيها ..

وحين جىء بزوجها ، رمقته بنظرة تشجيع تفيض بالحب والحنان ، بحيث تورد لها وجهه واشرقت عيناه .. ولم يكن يسود قاعة تلك المحكمة الظالمة شىء من النظام ، ولا كان متهم يطمئن الى انه سيظفر بمحاكمة عادلة . بل لقد كان واضحا من النظرات الحادة «المفترسة» للقضاة الخمسة والمحلفين ، ان لا امل فى ان تنطوى قلوبهم على شىء من الرحمة فى ذلك اليوم!

وتلى على المتهم قرار الاتهام :

« شارل ايفريموند ـ الملقب بدارنى ـ اطلق سراحه أمس ، ثم أعيد اتهامه والقى القبض عليه أمس .. متهم بانه عدو للجمهورية ، ينتمى الى طبقة النبلاء ، والى أسرة ارتكبت افظع اعمال القسوة على الشعب ! »

وسأل رئيس المحكمة سلطة الاتهام : « هل التهمة علنية أو سرية ؟ »

ـ علنية يا سيدى الرئيس

ـ ومن الذى يتهمه ؟

ـ ثلاثة : ارنست ديفارج ، وتيريز ديفارج ـ زوجته ـ والطبيب الكسندر مانيت !

وخلال الضجيج المروع الذى ساد قاعة المحكمة على الاثر ، رؤى الدكتور مانيت يهب واقفا وقد شحب وجهه وارتجف من رأسه الى قدمه .. وصاح من مكانه : « سيدى الرئيس ، اعلن اليكم ان هذا غير صحيح . انتم تعلمون ان المتهم هو زوج ابنتى ، ومن قال اننى اتهم زوج ابنتى الوحيدة ؟ »

ـ ايها المواطن مانيت ، تذرع بالهدوء واصغ الى ما سيجىء .. وخلال ذلك ، لتلزم الصمت !

ومرة اخرى تعالى الضجيج والصيحات العالية عندما جلس الطبيب فى مكانه وشفتاه ترتعشان انفعالا !.. وحين هدأت القاعة من جديد ، نهض ديفارج فروى قصة سجن الدكتور مانيت الطويل فى غياهب «الباستيل» الرهيب ،

ووصف الحالة التى وجده عليها حين اطلق سراحه وسلم اليه !

وسألت المحكمة الشاهد : «هل قمت بمهمة طيبة ايها المواطن عند اقتحام الباستيل ؟ »

ــ اعتقد ذلك

ــ اذن حدثنا بما فعلت فى ذلك اليوم ايها المواطن !

فقال ديفارج وهو يلقى نظرة الى زوجته : « كنت اعلم ان هذا السجين كان يقيم فى زنزانة يطلق عليها «رقم ١٠٥ ، البرج الشمالى » .. علمت ذلك من السجين نفسه ، الذى لم يكن يعرف له اسما غير هذا الرقم : « ١٠٥ ، البرج الشمالى » !.. فلما سقط الباستيل طلبت الى احد الحراس ان يقودنى الى الزنزانة المذكورة . وهناك فحصت كل شبر منها فحصا دقيقا، فوجدت فى فجوة بجدار المدفأة مخطوطا هو الذى أقدمه الان للمحكمة ، وهو بخط الدكتور مانيت ! »

فقال رئيس المحكمة على الفور : « فليتل المخطوط المقدم » ووسط سكون رهيب، تلى المخطوط .. وكان هذا نصه :

الفصل الثانى والعشرون

قصة الدكتور مانيت

◆ **انا** «الكسندر مانيت» اكتب هـذا فى زنزانتى بسجن (الباستيل) فى سنة ١٧٦٧ ، وفى عزمى ان اخفيه فى فجوة بالمدخنة ، حيث آمل ان يعثر عليه شخص ما بعد موتى . انى الآن بكامل قواى العقلية ولسبت مجنونا (وان كنت اخشى ان افقد عقلى قريبا) .. وهذا الذى اكتبه هو الحقيقة الصادقة ، وانا اكتبه بمسمار صدىء استعضت به عن القلم .. اما الحبر فقد استعضت عنه بدمى ، مخلوطا برماد المدخنة!

كنت اسير على ضفة نهر السين ذات ليلة مقمرة ملبدة بالسحب ، من شهر ديسمبر سنة ١٧٥٧ ، حين جاءت عربة من خلفى ، فلما حاذتنى أطل رجل برأسه من نافذتها وامر بايقافها . .ثم سمعته ينادينى باسمى ، وترجل من العربة سيدان ، لاحظت لاول وهلة قوة الشبه بينهما ، فى الطول والحركات والصوت والوجه !

وابتدرنى احدهما : « هل انت الدكتور مانيت ؟ »

ـ انى هو يا سيدى

ـ لقد ذهبنا الى منزلك فقيل لنا اين عسانا ان نجدك .. نرجوك ان تتفضل بالركوب

فأجبت : « من عادتى ان أسأل عن طبيعة الحالة التى استدعى بشأنها ، واسم الشخص الذى يلتمس معونتى » .. فقالا : « نحن من اسرة طيبة ، أما عن طبيعة الحالة فانك ستراها بنفسك » .. وكانا يتكلمان وقد احاطا بى ، كل من جانب ، فلم يكن فى وسعى غير ان اطيع !.. ومضت بنا العربة حتى خرجت من البوابة الشمالية ، ثم انحرفت عن الطريق الرئيسى بعدها بنحو ميلين .. واخيرا توقفت امام دار منعزلة

وسمعت صرخات تنبعث من غرفة فى الطابق الاعلى ، أخذونى اليها على الفور فوجدت شابة قد اعترتها حمى مرتفعة جعلتها تهذى . وكانت بارعة الحسن غضة الشباب ، وان كان شعرها قد تمزق وذراعاها اوثقتا الى جانبيها بقطعة من الحرير رسم على ركن منها حرف "E" . وكانت تنبعث من عينيها نظرات ضارية وقد أخذت تصرخ بلا هوادة : « زوجى ، أبى ، اخى ! » ثم تعد : «واحد ، اثنين ، ثلاثة» .. حتى اذا بلغت رقم الاثنى عشر بدت كأنها تصغى .. ثم عاودت الكرة من جديد، المرة بعد المرة !!

وسألت الرجلين : «كم من الوقت انقضى عليها وهى فى هذه الحال ؟ » .. فاجابنى اكبر الاخوين : «منذ نحو هذا الوقت من الليلة الماضية » .. فبادرت باعطاء الفتاة دواء منوما ، وجلست بجوار فراشها ارقب مفعوله.. وبعدنحو نصف ساعة هدأت الفتاة قليلا . وعندئذ قال الاخ الاكبر : « هناك مريض اخر » وتناول مصباحا ثم قادنى الى غرفة أخرى — وكانت تستخدم لخزن التبن وحطب الوقود ، وفى أسفلها يقع «اسطبل» الخيل — وهناك كان يرقد على الارض فتى فى نحو

السابعة عشرة قد امسك صدره بيده ، وبدت فى عينيه بدوره نظرة ضارية . وادركت من فورى انه يحتضر ! وحين سمح لى بعد جهد ان ارفع يده عن صدره رأيت فيه جرحا غائرا من تأثير طعنة سيف ، انقضت عليها نحو اربع وعشرون ساعة .. فسألت : «كيف حدثت هذه الاصابة ؟» .. فاجابنى مرافقى بصوت لا يبدو فيه أثر لشفقة او حزن : « انه فتى قروى لا وزن له ، كان قد ألجأ اخى الى ان يستل سيفه ! »

وهنا استدارت عينا الفتى الى ، وسألنى : « هى .. هل رأيتها يا دكتور ؟ » .. فلما أجبته بالايجاب ، استطرد : « انها أختى ، وقد أحبت شابا من أهل القرية .. وكان مريضا فى ذلك الحين فتزوجته لتسهر على صحته . ثم رآها أصغر الاخوين ، وأرادها .. ففرض على زوجها أن يعمل طول الليل ، حتى اذا اقبل الصباح اجبروه على جر عربة ثقيلة . وذات يوم ، نحو الظهر ، فيما كانت الساعة تدق دقاتها الاثنى عشر ، أطلق الشاب عدة صرخات متوالية ، صرخة مع كل دقة من دقات الساعة .. ثم أسلم الروح . وعندئذ اخذوا زوجته ـ اختى ـ بعيدا . فلما علم ابى مات حزنا وغما .. فأخذت اختى الصغرى الى مكان بعيد آمن ، ثم تبعت الاخ الى هنا . وفى الليلة الماضية تسلقت البيت وفى يدى سيف . وسمعتنى اختى فهرعت الى مكانى . وعندئذ اقبل هو ، فهجمت عليه بسيفى بحيث اضطر الى ان يستل سيفه ليدافع عن نفسه .. وهذه هى النتيجة .. ارفعنى يا دكتور .. أين هو ؟ »

ورفعته ، فاستجمع فجأة كل ما تبقى من قواه ونهض واقفا ، ثم قال : « انى ألعنك ، وكل آلك ـ يا أصغر افراد سلالتكم الشريرة ـ كى تكفر عن هذه الافعال ، وأرسم عليك هذا الصليب من الدم كعلامة تميزك . وألعن أخاك ـ أسوأ أفراد السلالة الشريرة ـ كى يكفر عن افعاله ويدفع الثمن . وأرسم عليه هذا الصليب من الدم كعلامة تميزه .. »

ثم غمس يده فى الدم المنبثق من صدره ورسم صليبا فى الهواء ٠٠ وعندئذ سقطت يده ، فلما أرقدته على الارض تبينت أنه قد مات !

وعدت الى الفتاة ٠٠ كانت ما تزال تطلق صرخاتها ، فأيقنت أنها ستظل على هذه الحال بضع ساعات ، ثم تلحق بأخيها ! ٠٠ وجاء الاخ الاكبر فجلس بجانبى ، وقال : « انك يا دكتور ماتزال شابا وامامك مستقبل عليك ان تبنيه ، فمن الافضل لك ان لا تتفوه بكلمة عما رأيته وسمعته هنا ! »

لم اجبه ٠٠ وبعد ساعتين ماتت الفتاة ، وكان الشــــقيقان جالسين فى الطابق الاسفل ، فأخرج الاكبر من جيبه كيسا من الذهب وقدمه لى ٠ لكنى اعتذرت بقولى : « أرجو ان تعفينى ٠٠ ففى مثل هذه الظروف لا اتقاضى اجرا »

نظر كلاهما الى الاخر ،عجبا ودهشة ٠٠ فانحنيت لهما محييا، وافترقنا دون ان نتبادل كلمة اخرى !

لكنى فوجئت فى الصباح التالى بذلك الكيس من الذهب وقد ارسل الى فى منزلى ، فى ساعة مبكرة ! ٠٠ وكنت قد قررت ابلاغ الامر الى الوزير ٠ فلم أكد أفرغ من كتابة بلاغى اليه حتى قيل لى ان امرأة شابة تبغى مقابلتى ٠ علمت منها انها قد وقفت على خلاصة ما حدث ٠٠ وان زوجها هو الشقيق الاصغر ، لكنها ليست موفقة فى زواجها ٠ ولم تكن تعلم ان الفتاة قد ماتت، ومع ذلك فقد جاءت تعرض ان تساعد ــ سرا ــ اسرة المجنى عليها اية مساعدة فى وسعها ٠ كما انها عرفت ان للفتاة شقيقة اصغر منها فودت لو تساعدها كذلك ٠

رويت للزائرة كل معلوماتى عن المسألة ، وذكرت لها اننى اجهل مكان الاخت الصغرى ٠ وعند انصرافها رافقتها الىالباب فلمحت فى العربة التى تنتظرها طفلا فى نحو الثالثة ٠ وعندئذ التفتت الى مناشدة :

« من اجل طفلى يا دكتور اريد ان افعل ما استطيع لمواساة الاسرة المنكوبة ، والا حاقت بابنى لعنة الضحيتين .. فان بى احساسا خفيا انه سيدفع يوما ثمن كل هذه المظالم اذا لم أفعل شيئا للتخفيف من وقعها! .. انى أملك بعض الحلى الثمينة وسوف أوصيه قبل موتى أن يهبها لتلك الاسرة التى نكبها أبوه » ..
ثم قبلت الطفل قائلة : « انك ستكون وفيا يا صغيرى «شارل» أليس كذلك ؟ » .. فأجابها الصغير فى جرأة : « نعم » .. واثناء حديثها ذكرت عفوا اسم زوجها ، اعتقادا منها بأنى أعرفه ، لكنى لم أضف الى الخطاب شيئا ، وانما اغلقته وسلمته بنفسى فى اليوم ذاته

وفى ذلك المساء طرق الباب رجل يرتدى السواد ، طالبا أن يرانى . ففتح له خادمى الشاب ــ المدعو ارنست ديفارج ــ فتبعه الى الطابق الاعلى حيث كنت جالسا مع زوجتى العزيزة .. وقال لى الرجل : « هناك حالة مستعجلة فى شارع « سان أونوريه » ، والعربة تنتظر بالباب » ... **ولم أكد اتبعه الى الخارج حتى القيت على من الخلف خرقة سوداء شدت على فمى ، وأوثق ذراعاى .. ثم برز الشقيقان من الجانب المقابل المعتم من الشارع ، وتناول الشقيق الاكبر (المركيز) من جيبه الخطاب الذى كتبته الى الوزير وأحرقه على لهب مصباح العربة ثم وطأ بقاياه فى الوحل .. ودون أن ينطق أحدنا بكلمة حملتنى العربة الى هذا السجن ، قبرى الذى دفنت فيه حيا !**

وطيلة هذه السنين لم يرسل الى أولئك القوم أى نبأ عن زوجتى، بحيث لا أعلم اذا كانت ما تزال حية أم ماتت !.. ذلك أن قلوبهم قد خلت من الرحمة ، ولست أشك فى أن الله لن يرحمهم ، وان علامة الصليب الدموى سوف تظل لعنتها تطاردهم .. وبالاضافة اليها أصب ــ أنا الكسندر

مانيت ـ لعنتى أيضا على الشقيقين ونسلهما جميعه حتى آخر فرد من سلالتهما الشريرة ٠٠!

❖

عندما انتهت تلاوة المخطوط دوت فى أرجاء القاعة صيحة رهيبة ... صيحة الدم ، تطالب برأس المتهم !

ولم تبق حاجة للتساؤل عن سبب كتمان آل ديفارج لسر هذا المخطوط منذ عثروا عليه ، فقد أخفوها حتى يحين الوقت الذى يحدث استعمالها فيه أعظم الاثر !.. كما لم تبق حاجة للتساؤل عن سبب تلك الكراهية المتأججة التى أضمرها أهالى حى « سان انطوان » لاسرة ايفريموند !

وغمغمت مدام ديفارج ، وهى تبتسم ، للمرأة الجالسة بجانبها ـ وهى المدعوة « فنجانس » (الانتقام) : « أين نفوذ الطبيب العظيم ؟ أنقذه يا طبيبى ، أنقذه اذا استطعت ! »

وعند أخذ الاصوات كان النظارة يقابلون اعلان كل صوت بضجيج مروع ٠٠ ضجيج فى أثر ضجيج ٠٠ واتفقت كلمة الجميع : أن يعود ايفريموند الملقب بدارنى الى سجنه ٠٠ كى يعدم خلال أربع وعشرين ساعة !!

الفصل الثالث والعشرون

مستر لورى يبذل وعدا

◆ **بسطت** لوسي ذراعيها نحو زوجها ضارعة : « دعــونى ألمسه ، مرة واحدة ! دعونى أقبله ! أواه أيها المواطنون الطيبون فلتدركم الرحمة بنا ! »

وكان أكثر « المواطنين الطيبين » قد خرجــوا من القــاعة ليتظاهروا معربين عن سخطهم الشديد وكراهيتهم للسجين! وكان بارساد بين من بقــوا فى القــاعة ، فقــال للحاضرين :

« دعوها تقبل زوجها ٠٠ لن يستغرق ذلك أكثر من لحظة »٠٠ فوافقوا صامتين ، ومضت الى حيث وقف تشارلس ، وتبعها والدها الذى هم بأن يجثو على ركبتيه لكليهما مستغفرا ٠٠ لولا أن أمسك دارنى به صائحا : « كلا ! كلا ! ماذا جنيت حتى تركع لنا ؟ الان قدرنا مبلغ ما قاسيته من ألم حين عرفت من أنا ٠٠ وكيف تغلبت على شعورك من أجل سعادة ابنتك ٠٠٠ فنشكرك بجماع قلبينا ، كانت السماء فى عونك !! »

وعندما جاءوا ليأخذوه ، وقفت زوجته تشيعه بنظراتها وهى تعصر يديها ، وقد لاح حبها على وجهها . فلما اختفى عن ناظريها استدارت ثم سقطت مغشيا عليها ٠٠٠ فحملها سيدنى كارتون الى العربة . وحين وصلوا الى بيتها حملها الى داخله ، حيث أخذت طفلتها ومس بروس تنتحبان قلقا عليها . وقال كارتون : « قبل أن أذهب ، هل تسمحون لى بتقبيلها ؟» ٠٠ وانحنى فمس وجهها بشفتيه ٠٠ ثم مضى الى الغرفة المجاورة ، يتبعه لورى ووالدها ٠٠

وقال كارتون للطبيب : « كان تأثيرك عظيما أمس يا دكتور مانيت .. فيجب أن تبذل أقصى جهدك من الان حتى أصيل غد كى تنقذه ! »

ـ هذا ما سأحاوله .. ولن أستريح لحظة واحدة

ـ لا بأس . ان الامل ضئيل ، ولست أتوقع نتيجة ما من المحاولة ٠٠ لكنى أحب أن أعرف مدى ما ستصل اليه مساعيك متى ستقابل ممثلى السلطات المسؤولة ؟

ـ فى خلال ساعة أو اثنتين ٠٠

ـ أتمنى لك التوفيق !

ولحق لورى بكارتون عند الباب الخارجى ، حيث لمس كتفه وهو يدلف من الباب . وحين استدار اليه ابتدره فى لهجة حزينة :

ـ ليس عندى أدنى أمل ··

ـ ولا أنا

ـ بعد الطريقة التى أظهر بها الجمهور شعوره لن يجرؤ أحد على انقاذه !

ـ أجل ، ما من أمل جدى ·· انه سيموت

قالها كارتون وراح يهبط السلم بخطوات ثابتة ·· وحين بلغ الشارع تريث ، لايدرى بالضبط الى أين يذهب ·· وقال يحدث نفسه : « انى حسنا أفعل باظهار نفسى ، فمن الخير أن يعرف الناس أن هناك رجلا مثلى هنا · قد يكون هـذا تمهيدا ضروريا » ·· ثم ولى وجهه شطر حى سان انطوان !

ولاول مرة منذ سنوات تناول عشاءه بغير أن يتعـاطى معه شرابا قويا ·· ثم اتجه نحو حانة مسيو ديفارج · ولم يكد يدخل فيجلس ويطلب ـ بفرنسية سقيمة ـ كأسا صغيرة من النبيذ ، حتى ألقت عليه مدام ديفارج نظرة عابرة ·· ثم نظرة أحد ·· فأشد حدة ! وعندئذ تقدمت منه بنفسها وسألته ماذا طلب ، فكرر ماقاله للساقى الاول · وعندئذ سألته : « هل أنت انجليزى ؟ »

ـ نعم ياسيدتى ، اننى انجليزى

فتركته كى تحضر له النبيذ وهمست لزوجها : « **أقسم لك انه قوى الشبه من ايفريموند !** » **فقال ديفـارج : « انه بالفعل يشبهه » ·· وكان جاك رقم ٣ قريبا منهما فقـال لها : « ان ايفريموند يشغل كل تفكيرك ! »**

وران على الثلاثة سكون وهم يختلسون النظر الى كارتون، الذى تظاهر بأنه يقرأ صحيفة فى يده بصعوبة ، متابعا كلماتها باصبعه !

وقال جاك رقم ٣ : « ان ماتقوله السـيدة صحيح ، لماذا نقتصر على ايفريموند ؟ »

فقال ديفارج : « علينا أن نتوقف عند حد على أى حال »

وقالت زوجته : « انى سأتوقف بعد أن يموتوا جميعا ! »
فقال ديفـــارج فى شىء من القلق : « فكرة طيبة · لكن الطبيب قد تألم كثيرا فى الواقع ·· هل رأيتم وجهه حين تلى المخطوط ؟ بل ووجه ابنته ؟ »
فقالت مدام ديفارج : « لقد رأيت وجهه ، ورأيت وجه ابنته · رأيتها اليوم وفى مرات سابقة · ورأيتها فى الشـارع المواجه لنافذة السجن ·· فلتأخذ حذرها ! لكنك تود انقاذ ذلك الرجل الآن لو استطعت !؟ »
فقال ديفارج : « كلا ·· »
وأردفت زوجته : « **اصـــغوا الى ·· ان اسم تلك الاسرة مدرج فى قائمتى منذ زمن بعيد بسبب قسوتهم · وحين أحضر زوجى ذلك المخطوط الذى عثر عليه فى الباستيل قرأناه معـــا هنا ، على ضوء هذا المصباح ·· فلما انتهينا منه كاشفت زوجى بسر : ان تلك الاسرة الفقيرة التى نكبها الشقيقان ايفريموند ، كانت أسرتى · وذلك الفتى الذى قتلاه كان أخى ، وتلك الفتاة أختى ·· كنت أنا أختهما الصغرى !** »
فقال ديفارج : « هذا صحيح »
— اذن فلتتقل للآخرين أين يتوقفوا ·· أما أنا فلا !
وتوافد عـلى الحانة رواد آخرون ، فتفـرقت الجماعة ·· ودفع كارتون ثمن كأس النبيذ ثم انصرف · مضى الى مسـكن لورى ، وهناك وجد الشيخ المسن يذرع الحجرة فى قلق وانزعاج : ان الدكتور مانيت لم يعد منذ غادر البنك فى الساعة الرابعة ! ·· وانتظره الرجلان ، دون جـدوى ، حتى العاشرة مساء ·· واذ ذاك مضى لورى ليرى لوسى ، وبقى كارتون بمفرده بجوار المدفأة ··

وقرب منتصف الليل عاد لورى ، ولم يلبث الاثنـان أن سمعا خطوات الطبيب تصعد السلم ·· وبمجرد أن دخل الغرفة كان واضحا من سحنته أن كل أمل قد ضاع !

ولم يعرفا اذا كان المسكين قد قابل أحدا ، أو أنه أنفق كل تلك الساعات يذرع الشوارع ‥ فانهما لم يجرؤا أن يوجها اليه سؤالا ، بعد أن قال لهما وجهه كل شيء !

وسمعاه يقول: « لست أجدها ‥ أين هي ؟ أين منضدتي؟» ‥ فنظر كلاهما الى الآخر ، وسقط قلباهما ! ‥ بينما أردف الطبيب صائحا : « هيا ، هيا ‥ دعوني أبدأ عملي ‥ اعطوني منضدة عملي ! »

وكان واضحا عقم كل محاولة للتفاهم معه ، فوضع كلاهما يدا على كتفه وأقنعاه بالجلوس بجوار المدفأة ، واعدين اياه باحضار منضدة عمله اليه بعد برهة ‥ فغاص في المقعد وراح يحدق في النار والدموع في عينيه

وعادا ينظران أحدهما الى الآخر ، فقال كارتون : « ان الفرصة الاخيرة قد ضاعت ، ومن الافضل أن تأخذه الى ابنته ‥ ولكن قبل أن تذهب ، هل لك أن تنصت الى لحظة ؟ لا تسألني لماذا أطالبك بأن تقطع لي عهدا ، فلدى أسبابي الوجيهة ! »

ـ لست أشك في ذلك ‥ استمر

وانحنى كارتون ليرفع معطف الدكتور مانيت الذي سقط على الارض ، فاذا حافظة صغيرة تقع من أحد جيوب المعطف ‥ فتناولها كارتون ، ووجد فيها ورقة مطوية لم يكد ينشرها ويقرأ مافيها حتى تنفس الصعداء وهو يقول : « شكرا لله ! » . فسأله لوري : « ماهذه ؟ »

ـ انتظر حتى أتكلم عنها في موضعها ‥ ولكن قبل ذلك ـ (ودس يده في جيبه وأخرج منه ورقة أخرى) ـ هذا هو جواز المرور الذي سيسمح لي بالخروج من باريس . تأملها ، أترى ما كتب فيها : « سيدني كارتون ، انجليزي الجنسية » ؟

تناولها لوري في يده ، وهو يحدق في وجه كارتون متسائلا ‥ فاستطرد هذا : « احتفظ لي بها حتى غد ، فلعلك

تذكر اننى سأقابل تشارلس غدا ومن الافضل أن لا تكون معى عند ذهابى الى السجن ‥ وخذ أيضا هذه الورقة الاخرى التى كانت فى جيب مانيت ، وهى تخول له هو وابنته وطفلتها أن يغادروا المدينة فى أية لحظة ‥ أترى ؟ »

ــ أجل

ــ والآن اصغ الى ٠ عندى من الاسباب مايجعلنى أخشى أن يغتصب هذا التصريح من الطبيب ، فانهم فى خطر عظيم ٠ لقد سمعت مدام ديفارج تتحدث عنهم الليلة ٠ لا تجزع ، فانك سوف تنقذهم جميعا

ــ أرجو ذلك ‥ ولكن كيف ؟

ــ سأذكر لك كيف ‥ ان الامر يتوقف عليك ، وفيك كل الكفاية ، سيما وانهم لن يتعرضوا غالبا للخطر قبل مرور بضعة أيام أخرى ‥ والآن اليك تفصيل مهمتك : ان فى حوزتك من المال ماتستطيع أن تكفل به وسيلة المواصلات التى تنقلكم الى ساحل البحر بأسرع مايمكن ‥ فلتحرص على أن تستأجر صباح غد عربة تكون مستعدة للتحرك بكم فى الساعة الثانية بعد الظهر

ــ لك هذا !

ــ يا لك من صديق نبيل القلب ٠ والآن عليك أن تشرح للوسى الليلة ماتعلمه عن الخطر الذى يهددها هى وأباها وطفلتها٠ قل لها انهم ينبغى أن يرحلوا عن باريس ، وان هذه كانت رغبة زوجها الاخيرة ٠ بل قل لها ان على تنفيذ هذه الخطة تتوقف أشياء أخطر بكثير من كل مايخطر ببالها ! ولتكن كل معدات السفر معدة هنا فى الفناء فى الموعد الذى ذكرته لك ٠ بل فلتأخذوا جميعا أماكنكم فى العربة ولا تنتظروا الا شغل مكانى فيها ‥ وعندئذ : الى انجلترا !

ــ أفهم من هذا اننا ينبغى أن ننتظر حضورك أيا كانت الظروف ؟

ــ ان معك جواز سفرى مع بقية الجوازات ٠ فعليك فقط

أن تنتظر شغل مكانى .. هل تعدنى بأن تتبع تعليماتى هـذه حرفيا ؟

ـ أعدك !

ـ حسنا ، أد أنت دورك ، وأنا دورى ! والآن ، وداعا !

وبعد أن أعان كارتون مستر لورى على نقل الدكتـور مانيت الى حيث توجد ابنته ، ودعهم عند الباب الخارجى .. ثم لبث هناك بضع دقائق بمفرده ، يتطلع الى نافذة مخـدع لوسى المضاء .. وقبل أن يمضى همس بدعاء أخير يباركها به !

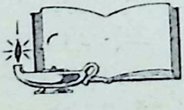

الفصل الرابع والعشرون

سيدنى كارتون يملى خطابا

◆ **فقد** تشارلس دارنى ، وهو وحيد فى سجنه ، كل أمل فى الخلاص !٠٠ فمنذ أصغى الى تلاوة مخطوط الدكتور مانيت وسمع صداه فى صرخات الجماهير الضارية ، أدرك أن ما من نفوذ شخصى يستطيع انقاذه من مصيره المحتوم ٠٠ وانه لا بد أن يموت ، لا لجريمة ارتكبها هو ، وانما من أجل جرائم لا حصر لها ارتكبها أفراد من عائلته ومن غيرها من عائلات النبلاء ضد الملايين من أبناء الشعب ٠٠

ولكن ، كان يشق على نفسه أن يموت ، وأن يفارق ثانية - والى الابد ! - الزوجة المحبوبة والطفلة اللتين ضمهما الى صدره بعد فرقة طويلة ٠٠ وان كان له بعض العزاء فى أن المصير الذى لا بد سيلاقيه لا ينطوى على أى عـــار ٠٠ فان كثيرين غيره من الضحايا، الابرياء من أية جريمة، كانوا يعبرون الطريق ذاته كل يوم ، ويطأون أرضه ثابتى الجأش الى النهاية ٠٠ وهكذا ، حين هدأت نفسه بعض الشىء ، جلس ليكتب خطابه الاخير الى الذين أحبهم :

فكتب الى لوسى : « ٠٠ اننى لم أعرف قصة سجن أبيك الا عندما قصصتها على ٠٠ ولم أكن أعلم أن أبى وعمى هما اللذين حطما حياته على ذلك النحو المروع ٠ وكنت قد صارحتـــه باسمى الحقيقى « ايفريموند » ، فسألنى أن أخفيه عنك ٠٠ لكنه وافق على زواجنا وباركه ٠ ولا شك أنه كان يحسب ذلك المخطوط الذى دسه فى زنزانته بسجن الباستيل قد أدركه الضياع فى غمرة الهرج الذى اقترن باقتحام ذلك الحصن ، أو لعله كان قد نسى كل شىء عنه ٠٠ **فرجائى اليك أن تواسى أباك ٠ لا تدعيه يلوم نفسه على أية صورة !٠٠ ولتنسى أنت شجنك وتكرسى حياتك له وللعناية بابنتنا ٠٠ وذات يوم ، فى ذلك العالم السعيد الذى وراء القبر ، سوف نلتقى جميعا**

مرة أخرى ! »

ثم كتب دارنى خطابا آخر الى الطبيب نفسه ، يوصيه خيرا بزوجته وطفلته ويتركهما فى رعايته (فقد يحميه الشعور بهذا الواجب الذى فى عنقه من أن يفقد صوابه ثانية)

وكان الخطاب الاخير الى لورى ، وقد شرح له فيه كل أموره الدنيوية وشكره على صداقته الدائمة .

أما سيدنى كارتون فلم يخطر لدارنى على بال اطلاقا .. فقد كان ذهنه مزدحما بالآخرين الى حد لم يدع له فرصة يذكره فيها بخير أو شر !

وقد أتم دارنى كتابة هذه الرسائل قبل أن تطفأ الانوار .. **فلما سبحت الزنزانة فى الظلام المطبق ، رقد على الفراش يفكر فى أن صلته بالعالم قد انتهت !.. لكن العالم ـ العالم الزاهى الذى أحبه ـ عاوده فى نومه المضطرب ، فحلم بأنه عاد ثانية الى داره فى لندن ، حرا ، سعيدا ! وكانت لوسى تقول له فى الحلم أن كل ما خيل اليه انه وقع له انما كان كابوسا مفزعا ، وانه لم يتركها قط !.. ثم لبث فترة يقظان ، وفترة أخرى نصف يقظان ونصف نائم .. وتتابعت عليه الساعات الطويلة فى بطء قاتل !**

وأخيرا ، مع خيوط الفجر الاولى التى بددت الاشباح من رأسه ، أدرك أن اليوم الاخير من حياته قد حل .. وانه وواحد وخمسون آخرون لن يروا فجرا آخر !

وكان يعرف كيف سيموت ، لكنه لم يكن قد رأى من قبل تلك المقصلة التى ستضع حدا لحياته .. فبدأ يفكر فيها : كيف سيكون شكلها .. والى أى جهة سوف يديرون وجهه . وهل سيكون من أوائل الذين يعدمون فى هذا اليوم أم أواخرهم .. هذه وأفكار كثيرة غيرها جالت بذهنه وساعات الصباح تتتابع عليه فى بطء رهيب !

وسار يذرع الزنزانة والساعة القريبة تدق كل حين دقة لن

يسمعها مرة أخرى !٠٠ التاسعة انقضت الى الابد ٠٠ العاشرة انقضت الى الابد ٠٠ الحادية عشرة انقضت الى الابد!٠٠ ان ذهنه الآن مستريح ، وكرر لنفسه فى رقة أسماء أحبائه ٠٠ وصلى من أجلهم

وانقضت الثانية عشرة الى الابد !

وكانوا قد قالوا له أن ساعته الاخيرة هى الثالثة ، لكنه كان يدرك أنهم لا بد سيأتوا ليأخذوه قبل ذلك ببعض الوقت ، فقد كانت عربات الموت تستغرق زمنا وهى تقطع رحلتها متثاقلة فوق الشوارع الحجرية ٠٠ واذن فقد بقى أمامه نحو ساعتين ، عليه أن يعد فيهما العدة لتقوية معنويته ، كى يتمكن فيما بعد من تقوية معنويات الآخرين الذين سيرافقونه فى عربة الموت !

وهكذا ، فى هدوء ، وذراعاه معقودتان فوق صدره ، مضى يذرع الزنزانة جيئة وذهابا ٠٠ وسمع الساعة تدق الواحدة ، لكنه لم يفاجأ ، وانما شكر السماء من أجل سكينة نفسه ٠٠ وحدث هذه النفس فى سره : « لم تبق غير ساعة واحدة ! »٠٠ وعاد يذهب ويجىء فى المكان ٠٠

وفجأة توقف ، فقد سمع وقع خطوات خارج بابه ٠٠ ثم وضع المفتاح فى القفل وأدير ٠ وحين فتح الباب سمع رجلا يقول فى صوت هامس : « انه لم يرنى هنا قط ، اذ حرصت على تجنب طريقه ٠ أدخل وحدك وسأنتظر أنا هنا ٠٠ لا تضيع وقتا »

وانفتح الباب بسرعة ثم أغلق ٠٠ واذا هو وجها لوجه أمام « سيدنى كارتون » ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مشرقة ورفع اصبعه محذرا !

وكان يحيط بسيدنى جو من الاشراق الغامض ، جعل تشارلس يحسب فى البداية انه يرى شبحا ٠ لكن القادم تكلم ، فكان الصوت صوت كارتون ٠٠ وأمسك بيده ، وكانت اليد يد كارتون !

قال كارتون : « لعلك لم تتوقع أن ترانى هنا ، من دون أهل الارض جميعا ، أليس كذلك ؟ » ٠٠ فأجابه دارنى : « انى لم أصدق عينى حين رأيتك ، وأكاد لا أصدقهما الآن ٠٠ هل أنت سجين ؟ »

— كلا ، وانما كان لى بالمصادفة نفوذ على أحد السجانين ، وبفضل هذا النفوذ ترانى أمامك الآن ٠ لقد أرسلتنى اليك زوجتك يا عزيزى دارنى !

شد السجين على يده ، بينما استطرد كارتون : « انى أحمل اليك منها رجاء على أقصى جانب من الاستعجال ٠ انها تناشدك باسم حبك اياها أن تفعل ما أطلبه منك بالضبط دون أن تضيع الوقت فى الاسئلة ٠ هيا ، اخلع حذاءك والبس حذائى ! »

وكان هناك مقعد بجوار جدار الزنزانة ، خلف السجين ، فأجلسه كارتون عليه فى مثل سرعة البرق ووقف أمامه عارى القدمين :

— والآن البس هذين الحذاءين ٠٠ اسرع !

— ان الفرار من هذا السجن غير مستطاع يا كارتون ، وهو أمر لم يحدث قط ومن الجنون أن أحاوله ٠٠

— هل طلبت اليك الفرار ؟ عند ما أسألك أن تتخطى هذا الباب فلتقل ان ذلك جنون ولتبق هنا ٠٠ والآن اخلع هذه السترة وارتد سترتى !

كان دارنى أشبه بالطفل فى يد سيدنى ، الذى كان بادى العزم والارادة ، فى حين كان هو مرتبكا لا يكاد يجزم بما اذا كان نائما أم يقظان !

— ولكن يا عزيزى كارتون ٠٠ انى لا أفهم شيئا !

— لا لزوم لان تفهم ٠ حسبك أن هذا ما تريده زوجتك وعليك أن تطيعها فى رجائها الاخير اليك

— انك مخطىء ، وستكون النتيجة أن تفقد حياتك معى ، اذ

لا سبيل للفرار
ـ هل سألتك يا عزيزى دارنى أن تتخطى هذا الباب ؟ عندما أفعل يمكنك أن ترفض . هناك قلم وورق على المنضدة فهل يدك ثابتة لتكتب ؟
ـ انها كانت كذلك قبل قدومك ..
ـ حاول أن تسترد ثباتك واكتب ما أمليه عليك .. أسرع يا صديقى بربك ، أسرع ، افعل كما أقول .
جلس دارنى الى المنضدة وقد أسند رأسه الى يده ، بينما وقف كارتون بجواره وقد دس يمناه فى صدره
ـ أكتب ما أمليه عليك بنصه
ـ لمن أوجه الخطاب ؟
ـ لا توجهه لاحد . فقط أكتب كما أمليك
فالتقط السجين القلم وتهيأ للكتابة .. فى حين استطرد كارتون: « أكتب : انك لا بد تذكرين الحديث الذى دار بيننا منذ زمن طويل ، فليس فى طبعك أن تنسى مثله .. »
وكان كارتون كأنما يمسك بشىء فى يده ، التى أخـــذت تتحرك ببطء الى أسفل وهو يملى :
ـ هل كتبت « أن تنسى مثله » ؟
ـ نعم ، ما الذى فى يدك ؟ سلاح ؟
ـ كلا ، فلست أحمل سلاحا !
ـ اذن فما هو ؟
ـ ستعرف بعد برهة ، اكتب : « .. وأحمد الله لان الفرصة قد حانت كى أنجز لك وعدى .. وانى لافعل ذلك دون أدنى أسف أو أسى .. »
وفيما هو ينطق بهذه الكلمات تحركت يده فى بطء وخفة الى قرب وجه السجين .. فسقط القلم من بين أصابع دارنى ونظر حوله فى ارتياب ..
ـ ما هذه الرائحة ؟

ـ رائحة ؟ لست أشم رائحة ·· ليس هناك شيء على الاطلاق ·· تناول قلمك واكمل الخطاب ، أسرع ··

التقط السجين القلم ثانية وقد بدا كأنما يجد صـــعوبة فى تركيز انتباهه ·· ونظر الى كارتون بعينين غائمتين ، لكنه عاد ينكب على الورق ··

وكرر كارتون عبارته الاخيرة : « دون أدنى أسف أو أسى » ·· وقد عادت يده تتسلل الى أسفل فى خفة وبطء · ونظر الى القلم فى يد دارنى فرآه يسجل على الورقة علامات لا معنى لها ·· ثم سقط القلم من يد دارنى ، وحاول أن ينهض ، لكنه كان قد فقد السيطرة على أطرافه ·· فأسرع كارتون وطوق خصره بذراعه ثم ضغط الخرقة ـ باليد الاخرى ـ على أنفه وفمه ·· فقاوم دارنى لبضع ثوان الرجل الذى جاء ليبذل حياته من أجله ·· ثم سقط على الارض فاقد الوعى !

وأسرع كارتون ـ دون أن يفقد هدوءه ـ بارتداء الثياب التى خلعها السجين ، ثم نادى بصوت هامس : « الآن تســتطيع الدخول ·· تعال » فدخل الجاسوس « بارساد » ، وابتدره كارتون : « أرأيت ؟ هل عرضتك لخطر ؟ »

وركع كارتون بجوار صديقه ووضع الخطاب داخل سترته فى وضع يمكن معه العثور عليه !·· وقال الجاسوس فى قلق : « يا مستر كارتون · لن يكون الخطر الذى أتعرض له كبيرا اذا وفيت بوعدك ! »

ـ لا تخش شيئا من جانبى · سأكون مخلصا حتى الموت ! ·· والآن ، هيا ادع من يســـاعدك على حمل الرجـل الى الخارج، ولتقل لهم اننى لم أحتمل الانفعال الذى سببه لى لقائى الاخير مع صديقى ـ ولن تكون هذه أول مرة يغمى فيها على انسان يودع صديقه الوداع الاخير ! ـ وحين تصل الى حيث تنتظر الاسرة ضعه بنفسك فى العربة وقل لمستر لورى انه ليس فى حاجة الى أكثر من الهواء النقى·· واطلب منه أن يتـذكر

كلماتى معه فى الليلة الماضية ، ووعده لى ، ثم دعه يرحل على الفور !

خرج بارساد من الزنزانة ، بينما اعتمد كارتون رأسه بين يديه ٠٠ ولم يلبث الجاسوس أن عاد وبصحبته رجلان ٠٠ فقال أحدهما وهو ينظر الى الجسم الملقى على الارض : « لم يحتمل لحظات الوداع ، أليس كذلك ؟ لم يعجبه أن يلقى صديقه التحية على المقصلة ، ايه ؟ ! »

وحملوا الرجل الغائب عن الصـــــواب وخرجوا به ٠٠ وأغلق الباب ، وأدير المفتاح فى القفل ، وصار كارتون وحيدا ٠٠ فأخذ يرهف سمعه لعله يسمع صوتا غير عادى ٠٠ لكنه لـم يسمع غير الاصوات المألوفة فى السجن ٠٠ لا صرخة ٠٠ ولا ضجيج ! ٠٠ فبدأ يتنفس الصعداء ، وان ظل يصغى متوجسا حتى دقت الساعة الثانية

وعندئذ سمعت أصوات كان يدرك معناها ، وكان مستعدا لها! ٠٠ فقد فتحت أبواب عديدة ، باب بعد الآخر ، وأخيرا فتح بابه هو ، وأطل منه سجان يمسك بقائمـــة فى يده ٠ وقال له : « ايفريموند ، اتبعنى ٠٠ » فنهض كارتون وتبعه فى صمت الى حجرة كبيرة معتمة كانت مزدحمة بمسجونين جىء بهم لتوثق أذرعهم ٠ كان بعضهم وقوفا ، وبعضهم جالسين ٠ البعض يبكون، والبعض يذرعون الحجرة قلقين ٠٠ لكن أكثرهم كانوا صامتين جامدين ، ينظرون الى الارض نظرة ثابتة ٠٠

ووقف سيدنى بجوار الحائط ، فى ركن معتم ٠ وتوقف رجل كان مارا ، كأنما ليحييه ، ثم واصل سيره ٠٠ وبعد لحظات نهضت فتاة واتجهت اليه لتحادثه٠ كانت لها هيئة صبية صغيرة ذات وجه عذب نحيل ، شديد الشحوب ٠ وقالت وهى تلمسه بيد باردة : « أيها المواطن ايفريموند ٠ انى حائكة ثياب بائسة كنت معك فى سجن (لافورس) »

فغمغم متمالكا نفسه : « حقا ٠ لقد نسيت تهمتك »

ـ التآمر .. لكن الله يعلم اننى بريئة . وهل يعقل أن يفكر أحد فى التآمر مع مخلوقة ضعيفة بائسة مثلى ؟

كانت تبتسم وهى تتكلم ، ابتسامة حزينة ، بحيث تدافعت الدموع الى عينى كارتون !

ـ انى لست خائفة من الموت ، لانى لم أرتكب ذنبا . فاذا كانت الجمهورية التى ستعمل حسنات كثيرة من أجل الفقراء ، تستفيد من موتى ، فانى أرغب فى الموت . ولكن كيف تكون من وراء موتى فائدة وأنا نفسى ضعيفة بائسة ؟!

فاض قلب سيدنى بالاشفاق وهو ينظر اليها ، ويستمع اليها .. فقد كانت آخر مخلوق يتحدث اليه على هذه الارض !

ـ سمعت أنهم أطلقوا سراحك أيها المواطن ايفريموند ، وكنت أرجو أن يكون هذا صحيحا ؟

ـ لقد كان صحيحا .. لكنهم قبضوا على ثانية

ـ اذا سمحوا لنا بأن نركب العربة متجاورين ، هل تعدنى بأن تدعنى أمسك بيدك ؟.. لست بخائفة ، ولكنى صغيرة وضعيفة ، وسيمنحنى ذلك شجاعة ..

ورفعت نحوه عينيها الصابرتين ، وفجأة .. لمح فيهما نظرة شك ، ودهشة !.. فأسرع يضغط يديها اللتين أضناهما العمل ، والجوع ، ولثمهما بطرف شفتيه .. فهمست له :

ـ أتموت بدلا منه ؟

ـ صه ! نعم .. ومن أجل زوجته وطفلته

ـ أوه ، دعنى أمسك بيدك أيها الغريب الشجاع

ـ صمتا ! لك ما تشائين أيتها الاخت المسكينة .. ستمسكين بها حتى النهاية !

الفصل الخامس والعشرون

وداع باريس

◆ **كانت** ظلال المغيب تترامى على أبواب السجن ، وأبواب المدينة ٠٠ وانطلقت عربة نحو أسوار بارزيس، حتى بلغت البوابة المراقبة والتفتيش :

ـ من هناك ؟ أين أوراقكم ؟

وقدمت الاوراق للحارس ، فقرأها ٠٠

ـ « الكسندر مانيت ، طبيب فرنسى » ٠ أيكم هو ؟

ـ هذا هو ٠٠ هذا الكهل الضعيف العاجز

ـ يبدو أن الطبيب ليس متمالكا عقله ٠ ربما كانت « حمى » الثورة أكثر مما استطاع احتماله

ـ أكثر بكثير مما استطاع احتماله

ـ ها ! ان كثيرين يقاسون منها !٠٠ « ولوسى ، ابنته ، فرنسية الجنسية » ٠٠ أين هى ؟

ـ هذه هى ٠٠

ـ انها لوسى زوجة ايفريموند ، أليس كذلك ؟

ـ انها هى

ـ آه ، ان ايفريموند مرتبط بموعد مع أخـــرى ! ولوسى الصغيرة ، ابنتها انجليزية الجنسية ٠٠ انها هذه ؟

ـ نعم

ـ قبلينى يا ابنة ايفريموند ٠ الآن قد قبلت مواطنا صالحا من مواطنى الجمهورية ٠ شىء جديد فى العائلة !

وبعد أن فحص الحارس أوراق الباقين أعادها اليهم قائلا :

ـ تستطيعون أن ترحلوا ٠ انطلقوا ٠٠ أتمنى لكم رحلةطيبة! لقد جاوزوا الخطر الاول !

وكانت المخاوف تسود ركاب العربة ، وكان الجو مشحونا بالبكاء والانفعال ، وثمة أنفاس ثقيلة تنبعث من الراكب المغمى عليه فى الركن ٠٠

وتساءلت لوسى : « ألا نستطيع مضاعفة سرعتنا ؟ »

فأجابها لورى : « لو فعلنا لبدونا هاربين ٠٠ فضلا عن أن أحدا لا يطاردنا ، حتى الآن ! »

وسرعان ما خلفوا باريس وراءهم وصاروا فى الريف ، مارين بأكواخ متناثرة هنا وهناك ٠٠ وطرقات رحيبة تحف بها أشجار أسقط الشتاء أوراقها ٠٠ ومزارع ٠٠ وأبنية خربة ٠ وفى احدى مراحل الرحلة غيروا جيادهم ٠٠ ثم عبروا قرية ، وصعدوا تلا ، ثم هبطوه من الناحية الاخرى ٠٠ ومروا بسهل مبللة أرضه بالماء ٠٠

وفجأة سمعت صيحة من الطريق : « أنت يا من فى العربة ٠٠ أجبنى ! »

فتساءل مستر لورى وهو يطل من النافذة : « ماذا تريد؟»

ـ كم عددهم اليوم ؟

ـ لست أفهمك

ـ كم قدم للمقصلة اليوم ؟

ـ اثنان وخمسون

ـ لقد قدرتهم كذلك ٠ عدد لا بأس به ٠٠ لكن زميلى المواطن هنا حسبهم اثنين وأربعين ٠ عشرة رؤوس أكثر ! بديع ٠٠ انى أهوى المقصلة !

وهبط الليل ٠٠ وبدأ المسافر الذى عاد الى وعيه يقول فى انزعاج : « احذروا ٠٠ احذروا ٠٠ وانظروا اذا كان يطاردنا أحد ؟ »

كانت الريح تندفع وراءهم ، والسحب تطير خلفهم ٠٠ ولكن فيما عداهما لم يكن يطاردهم حتى تلك اللحظة أحد !

الفصل السادس والعشرون

شغل الابرة .. يبلغ ختامه !

◆ **فيما** كان الاثنان والخمسون سجينا وسجينة يقضون آخر ساعاتهم على الارض ، كانت مدام ديفارج تتحدث الى صديقتها (الانتقام) والى جاك رقم ٣ ، فى كوخ الحطاب المواجه لنافذة السجن . كان جاك رقم ٣ أحد المحلفين . وكان الحطاب ـ الذى كان يوما عاملا فى الطرق ـ قد انزوى جانبا عن الآخرين ولم يشترك فى الحديث الا حين كان يخاطبه أحد .

وقال جاك رقم ٣ : « لكن زميلنا ديفارج جمهورى مخلص ولا شك .. أليس كذلك ؟ »

فصاحت (الانتقام) : « بل ليس فى فرنسا من يفوقه اخلاصا ! »

فتصدت لها مدام ديفارج : « هدئى من حماستك يا صغيرتى . ان زوجى جمهورى مخلص بلا شك ، ورجل شجاع استحق شكر الجمهورية . لكن فيه ضعفا واحدا : هو عطفه على الطبيب ! »

فقال جاك رقم ٣ : « انه شىء يؤسف له .. فالجمهورى المخلص لا ينبغى أن يشفق على أمثال هؤلاء ! »

وعادت مدام ديفارج تقول : « اصغوا الى . انى لا أعبأ البتة بأمر هذا الطبيب .. وسيان عندى احتفظ برأسه أم فقده . لكن أسرة ايفريموند يجب أن تباد .. يجب أن تلحق الزوجة والطفلة برب الاسرة !

وقال جاك رقم ٣ معلقا : « ان لها لرأس بديع يناسب المقصلة .. لقد طالما رأيت هناك عيونا زرقا وشعرا أشقر مرات كثيرة، وكانت تبدو رائعة حين ترفع وتعرض على الجماهير ! »

أطرقت مدام ديفارج بعينيها الى الارض وشردت فى أودية أفكارها .. بينما استطرد جاك رقم ٣ وهو يستمرىء صدى

صوته : « والطفلة أيضا لها شعر ذهبى وعينان زرقاوان ·· ومن النادر أن نظفر بأطفال للمقصلة · سوف يكون المنظـــر شائقا ! »

ورفعت مدام ديفارج رأسها ·· لقد وصلت الى قرار !

ـ الحقيقة اننى فقدت الثقة فى زوجى ، ولا أستطيع أن أعهد اليه بهذه المسألة أو أطلعه على تفصـــيلات خطتى · وأخشى لو توانيت أن يبادر الى تحذيرهم فيهربون !

ـ هذا مايجب ألا يحدث ! يجب ألا يفر أحد ، فليست لدينا الكفاية من الرؤوس للمقصلة · ينبغى أن يتوافر لنا مائة رأس كل يوم على الاقل !

ـ خلاصة القول ، ان زوجى ليس عنده الدافع الذى عندى على تعقب هذه الاسرة حتى لايبقى منها واحد على قيد الحياة ! ·· وأنا بدورى ليس لدى الدافع الذى يجعله يشفق على الطبيب · لذلك ينبغى أن أعمل منفردة فى هذا الموضوع ·· تعال هنـــا أيها المواطن الصغير ! »

كان الحطاب يشعر بأعمق الاحترام لمدام ديفارج ، فضلا عن أنه كان يخشاها ، فتقدم نحوها وقد رفع يده الى قبعتـــه الحمراء محييا ·· واذ ذاك ابتدرته المرأة : « هل أنت عـــلى استعداد لتأدية الشهادة اليوم بشأن تلك الاشارات التى كانت ابنة الطبيب ترسلها الى المسجونين عن طريق نافذة السجن ؟ »

فصاح الرجل : « أجل ، بالتأكيد ·· ولم لا ؟ انها كانت تقف هنا كل يوم من الثانية حتى الرابعـــة ، أيا كانت حالة الطقس · وأحيانا كانت تحضر معها الطفلة أيضا · لقـــد رأيت ذلك بعينى ! »

ـ اذن دعنا نتـــدبر الامر : هـــل أبقى على الطبيب اكراما لزوجى؟ الامران سيان بالنسبة الى، فهل أبقى عليه ؟ ما رأيكم؟

ـ انه كان يشير الى المسجونين مع ابنته حين فاجأتهمـــا ، ومن العسير أن نتهم الواحد ونترك الآخر · كلا ! فليأخـــذ

نصيبه • لا أستطيع الابقاء عليه • اننا سنلتقى طبعا فى الساعة الثالثة لمشاهدة المقصلة وهى تطيح بأولئك الاثنين والخمسين •• فلنمض من هناك الى « سان انطوان » للتبليغ عنهما معا !

فقال الحطاب انه يسعده ويدعو لزهوه أن يرافق بدوره مدام ديفارج • لكن المرأة حدجته بنظرة برود ، فغض من بصره كالكلب الخجول وتراجع الى مقعده !•• واذ ذاك جمعت مدام ديفارج الآخرين حولها بقرب الباب وهمست لهم بخطتها : «ان لوسى مانيت لابد تبكى الآن وتنتحب فى بيتها ، فى انتظار ساعة اعدام زوجها ، ولا شك أن حالتها هذه ستجعلها تفوه بكلمات مهينة عن عدالة الجمهورية ، وتمالىء بعواطفها أعداء الوطن •• فلأذهب اليها الآن ! »

فصاحت (الانتقام) وهى تحتضن صاحبتها فى حماسة : « يا لك من امرأة نبيلة وجمهورية مخلصة • أواه ياعزيزتى ، دعينى أقبلك ! » •• فأجابتها مدام ديفارج وهى تعهد اليها بأدوات شغل الابرة : « اليك ، احتفظى لى بهذه واحضريها معك حين نلتقى فى مكاننا المألوف تحت منصة المقصلة • ولا تنسى أن تحجزى لى مقعدى ، هيا اذهبى من الآن فسوف يكون الزحام شديدا »

فقالت (الانتقام) وهى تقبلها مرة أخرى فى وجنتها : « يسرنى أن أطيع أوامر رئيستى •• انك لن تتأخرى بالطبع ؟ »

ـ سأكون هناك قبل أن يبدأوا !

وانطلقت الى مهمتها الجديدة ، فصاحت صديقتها تلاحقها وهى تنحرف الى شارع آخر : « احرصى على الحضور قبل أن تصل العربات •• لا تتأخرى يا عزيزتى •• تذكرى ، قبل أن تصل العربات ! »

لوحت مدام ديفارج لها بيدها تطمئنها الى أنها قد سمعت وستكون فى مكانها فى الوقت المناسب ، ثم غذت السير بخطوات

قوية حازمة ٠٠ لم يكن بين نســـاء باريس جميعا امرأة يخشى الكل بأسها مثل مدام ديفارج ، فقد كانت لها شـــخصية قوية جريئة ، وضرب من الجمال يلفت النظر الى صفاتها ٠ وكانت قد شبت تهدهد فى أعماقها احساسها القوى بالظلم وبالكراهية الشديدة للنبلاء ٠ بل لقد جف من قلبها كل أثر ربما كان فيـه يوما من الاشفاق أو الرحمة !٠٠ لم يكن يعنيها فى شىء أن يموت رجل برىء من أجل شرور ارتكبها سواه ٠٠ ولا كان يعنيها أن تغدو زوجة من الزوجات أرملة ، وطفلة من الاطفـال يتيمة !٠٠ فكل ذلك فى نظرها أقل مما يكفى لاشباع تعطشها الى الانتقام ! ٠٠ وكانت تحمل فى طيات ثيابها مسدسا محشوا ، وفى وسطها سكينا حادة !٠٠ وعلى هذه الصورة انطلقت مدام ديفارج بخطى ثابتة عبر الشوارع المؤدية الى مسكن أعدائها !

❖

◆ فى تلك اللحظة كانت عربة تتجه نحو البوابة الشمالية ، مقلة شيخا انجليزيا ، وأما شابة ، وطفلتها ، وكهلا فرنسيا يبدو مضطرب العقل ، ثم شاب غائب عن وعيه !٠٠ وكان قد أعيـــا مستر لورى تدبير مكان للمربية « مس بروس » والســـاعى «جيرى كرانشر» ، فضلا عن حرصه على عدم اثقال العـربة بما يعوق سرعتها ، وحرصـــه على الاقلال من عدد ركابهـــا بحيث لا يتأخر فحص أوراقهم فى مختلف مراحل الطريق ٠ ولما كانت كل دقيقة لها قيمتها التى قد تكون فاصلة بين الحياة والموت ، فقد دبر أن تتخلف مس بروس وجيرى كرانشر ليسافرا بعربة تالية خفيفة وسريعة تلحق بهم خلال الطريق ثم تســـبقهم كى يوصى راكباها المحطات التالية باعداد مايلزم لتغيير جياد العربة الكبرى بمجرد وصولها ٠٠ وبذلك يمكن توفير كل لحظة يمكن توفيرها من الوقت الثمين ٠

وكانت مس بروس وجيرى قد رأيا العـربة الاولى وهى

تنطلق من الفناء ، وخمنا شخصية الراكب الغـائب عن الوعى الذى أحضره بارساد فى آخر لحظة !٠٠ وهكذا فيما كانت مدام ديفارج تغذ السير نحو مسكن الطبيب كان هذان الاثنـــان يتشاوران فى قلق عما يمكن عمله لتأمين وصول الركب الاول الى خارج البـــلاد ٠٠ فاقترحت مس بروس أن يتجنبا ركوب عربتهما من نفس الفناء الذى انطلقت منه العربة الاولى، خشية اثارة الشكوك !٠٠ ورحب جيرى بهذا التحوط الحكيم ، فاتفقا على أن يمضى هو الى مؤجرى العربة فيستقلها من هنـــاك ، ثم ينطلق بها الى حيث تنتظره مس بروس أمام كنيسة (نوتردام)، بعد أن تكون قد فرغت من اعداد أمتعتها ٠

ولم يكد جيرى يذهب حتى أخذت مس بروس تســـتعد للرحلة ، فملأت حوضا بالماء وبدأت تغسل وجههـا من آثار البكاء الذى قرح أجفانها ، خشـــية أن تلفت اليهـــا الانظار والشبهات أثناء سيرها الى مكان اللقـــاء ٠٠ وفيما هى تجفف وجهها ، حانت منها نظرة الى الوراء ، فاذا هى ترى وسط الغرفة ٠٠ مدام ديفارج !

أطلقت المربية صرخة فزع ، بحيث سقط حوض الماء من مكانه فانكسر وسالت محتوياته حتى بلغت قدمى المرأة الرهيبة ٠٠ فنظرت مدام ديفارج اليها فى برود وسألتها :

ـ أين زوجة ايفريموند ؟

وأدركت المربية فجأة أن أبواب الحجرات جميعا مفتوحة ، فسارعت الى اغلاقها ـ كى توهم المرأة بأن القوم لم يرحـــلوا وتعوقها عن ملاحقتهم ! ـ ثم استندت بظهرها الى باب الحجرة التى كانت تشغلها سيدتها لوسى ٠٠ واذ ذاك حدجتهـــا مدام ديفارج بنظرةغاضبة ، جاوبتها الاخرى عليها بنظرة صارمة ٠٠ **كانت كلا المرأتين قوية العزيمة ، بطريقتها الخاصة ، وكمـــا أكسبت الكراهية قلب المرأة الفرنسية جـــرأة ، أكسب الحب**

قلب غريمتها الانجليزية شجاعة !٠٠ فقالت فى هدوء ونعومة : « برغم أنك أشبه بزوجة الشيطان نفسه ، فانك لن تظفرى منى بطائل ٠٠ فاننى امرأة انجليزية ! »

كانت مدام ديفارج تعرف جيدا اخلاص غريمتها لافراد الاسرة ، ومس بروس تعرف عداء الاولى لهم !٠٠ وضاقت هذه ذرعا بالمربية فقالت : « اننى فى طريقى الى مكان حجز لى فيه مقعدى ، وليس لدى وقت أضيعه ٠٠ أريد مقابلة زوجة ايفريموند ! » ٠٠ فأجابتها الاخرى : « أنا أعلم أن نواياك شريرة ! »

كانت كلاهما تتكلم بلغتها الخاصة ، فلم تفهم احداهما قول الاخرى ، لكن كلا منهما فهمت جيدا نوايا غريمتها ! ٠٠ وأردفت مدام ديفارج :

ـ لن ينفعها اختباؤها منى ، فدعينى أراها ٠ اذهبى واخبريها اننى أود مقابلتها ٠ أتسمعيننى ؟

ـ لست أتلقى الاوامر منك أيتها الاجنبية الشريرة

ـ أيتها الخنزيرة الحمقاء ! انى أطلب مقابلتها ، فاما أن تخبريها بذلك أو تتنحى عن الطريق كى أذهب اليها بنفسى !

وتفرست كلاهما فى عين الاخرى بثبات ، وخطت مدام ديفارج خطوة الى الامام ٠٠ فقالت الاخرى : « اننى انجليزية ، ولست أعبأ بما قد يحدث لى ، لكنى أعلم اننى بقدر ما أعوقك هنا ، يعظم أمل محبوبتى فى النجاة ٠٠ فاذا لمستنى مجرد اللمس فانى لن أدع فى رأسك شعرة واحدة من شعرك الاسود !»

وبلغ انفعال مس بروس حدا جعل دموعها تنهمر على خديها ، فرأت ديفارج فى ذلك علامة على الضعف ، وقالت ساخرة : « ها ها ، يالك من مسكينة ٠ انك أقل شأنا من أن أنازلك ! سأنادى الطبيب » ثم رفعت عقيرتها صائحة : « أيها المواطن الطبيب ٠٠ يازوجة ايفريموند ٠٠ فليجيبنى أحد ٠٠

أى شخص غير هذه الحمقاء التعسة ٠٠ أجيبا المواطنة ديفارج !»
لكنها لم تسمع ردا٠٠ فلاحت فى عينيها نظرة شك، وهرعت تفتح كل باب فتطل منه ٠٠ وكانت الحجرات الثلاث خالية !٠٠ وهتفت : « ان هذه الحجرات مقلوبة رأسا على عقب ٠ لقد حزموا أمتعتهم ورحلوا ٠ افتحى الباب الذى وراءك ! دعينى أرى ما فيه ! »

ـ أبدا !

ـ لقد تمرست بالنضال منذ البداية ، ولم يوقفنى يوما دون غايتى شىء ٠٠ فان لم تبتعدى عن هذا الباب فسأمزقك تمزيقا!

ـ نحن وحيدتان في أعلى المنزل ، ولن تصل أصواتنا الى مخلوق ٠٠ وكل دقيقة أعوقكفيها هنا لا تقدر فى نظر لوسى بمال !

واندفعت مدام ديفارج صوب الباب ، فأمسكت بروس بخصرها وضغطت عليه ٠٠ وعبثا قاومتها مدامديفارج وضربتها، وقد أمدها الحب بقوة مكنتها من الثبات بل ومن رفع جسم غريمتها عن الارض ، بينما راحت هذه تضرب وجهها وتمزقه ، حتى أحنت مس بروس رأسها ٠٠ لكنها استمرت تقاوم !

وأخيرا كفت الفرنسية عن الضرب وراحت تتحسس مكان مديتها ، فقالت بروس من بين أسنانها: «ان المدية تحت ذراعى، ولن تصلى اليها ! اننى بحمد الله أقوى منك ، وسأظل ممسكة بك حتى يغمى على احدانا أو تموت ! »

وازاء هذا مدت مدام ديفارج الى صدر ثوبها ، فتطلعت مس بروس الى حيث خرجت اليد قابضة على مسدس ! ٠٠ وفى مثل لمح البصر ضربت المربية السلاح ، فومض منه بريق ، تلاه انفجار ٠٠ وتلفتت مس بروس لتجد نفسها وحيدة ، وقد كادت تختنق بالدخان ! ٠٠ واذ انحسر الدخان ، بدا كما لو كان قد أخذ معه روح تلك المرأة الشريرة التى رقدت على الارض ٠٠ فاقدة الحياة ! ٠٠

وفى غمرة فزعها وارتياعها ، تراجعت مس بروس عن الجثة .. ثم انطلقت تهبطت الدرج لتطلب النجدة .. لكنها لم تلبث أن أدركت خطورة ذلك بالنسبة لها، فعادت أدراجها. وتحاملت على نفسها حتى تخطت ذلك الجسد المسجى على الارض ، ثم تناولت قبعتها وحوائجها وأغلقت باب المسكن بالمفتاح الذى معها .. وجلست على السلم حتى التقطت أنفاسها .. وعندئذ هرعت الى الطريق وقد أخفت وجهها بنقاب ، كى تخفى أثار الخدوش التى تخلفت عن المعركة !

وسارت تقطع الشوارع المؤدية الى مكان اللقاء . ثم عبرت النهر ووصلت الى كنيسة (نوتردام) . وبعد انتظار بضع دقائق رأت العربة المرموقة قادمة وقد أطل جيرى من نافذتها . وقبل أن تتوقف تماما كان بابها قد فتح وصعدت المرأة اليها ، واذ ذاك أطلقت تنهدة ارتياح وهى تغوص فى مقعدها بجوار جيرى .. وسألته : « هل فى الشوارع أية ضوضاء ؟ » .. فبدت الدهشة على الرجل لهذا السؤال الغريب ، لكنه أجابها : « فيها الضوضاء المعتادة .. »

ـ ماذا تقول ؟ لست أسمعك !

وعبثا كرر لها عبارته فقد عادت تسأله ، وهو يجيبها ، فتسأله نفس السؤال من جديد .. فحدث نفسه : « عجبا ، ماذا أصابها ؟ هل أصيبت بالصمم فى نصف ساعة ؟ »

وقالت المسكينة : « أشعر كما لو كان هناك وميض وانفجار . ويخيل الى أن ذلك الانفجار سيكون آخر صوت أسمعه فى حياتى ! »

ـ ألا تسمعين صوت عربات الموت الرهيبة ؟

ـ ماذا تقول ؟ لست أسمع شيئا على الاطلاق !

ـ اذا كنت لا تسمعين صوت تلك العجلات وزئير الجماهير فى الميدان ، فأغلب ظنى أنك لن تسمعى شيئا على الاطلاق مدى الحياة !

وقد كان .. فان التعسة أصيبت بالصمم الكامل !

الفصل السابع والعشرون

المقصلة

◆ **كانت** عربات الموت ماضية ببطء تقطع شوارع باريس • ست عربات تحمل قربان اليوم الى المقصلة ! وكانت عجلاتها وهى تدور أشبه بقلابات محراث يشق كتلا من الاجساد المتزاحمة فى الطرقات •• وكان بين راكبى العربات نفر ينظرون الى الطريق الذى يعبرونه لآخر مرة بعيون هادئة غير مكترثة •• والبعض الآخر بدوا مطرقين ، غارقين فى هوة اليأس الصامت •• والبعض تذكروا ما سوف يقال عنهم فرموا الجماهير بنظرات الاحتقار والغطرسة

وكانت النسوة قد احتللن الصفوف الاولى من المقاعد القريبة من منصة المقصلة ، وانهمكت أيديهن فى أشغال الابرة •• ودقت الساعة الثالثة ، فالتفتت فنجانس (الانتقام) حواليها حائرة ، ثم صعدت فوق مقعدها وأدارت بصرها بين صفوف الحاضرات •• وصاحت : « تيريز •• ألم ير أحد تيريز ديفارج ؟ » •• فقالت أخرى : « انها لم تتخلف يوما ! » وعادت فنجانس تقول : « ولن تتخلف اليوم • يستحيل أن تتخلف : تيريز •• تيريز ! » فاستحثتها احدى الحاضرات : « ارفعى صوتك أكثر ! »

نعم ، فلترفعى صوتك أكثر يا فنجانس ! لكنها لن تسمعك ! •• ولترسلى من تشائين للبحث عنها •• لكن أحدا لن يجدها !

وغمغمت فنجانس فى أسى : « يا لســـوء الحظ ، لن يلبث دور ايفريموند أن يحل وهى لم تصل لتشهد نهايته ! »

وبدأت العربات تفرغ شحناتها ، وبدأت المقصلة مهمتها •• فهبطت السكين ، ورفع أول رأس حصدته أمام المتفرجين •• فأحصت النسوة : واحد !•• ثم اثنين !•• وثلاثة !•• وكلما

رفع رأس أحصين رقمه ، ثم عدن الى شغل الابرة !٠٠ وهبط ايفريموند المزعوم من العربة وأعان حائكة الثياب التعسة على النزول ، وكانت ما تزال ممسكة بيده ، ثم أجلسها على حافة المنصة وظهرها الى أداة الموت التى لا تفتأ ترتفع وتنخفض ، فرفعت عينيها اليه وشكرته : « لولاك أيها الغريب الشهم لما استطعت أن أبدو هادئة هكذا ٠٠ ان السماء قد أرسلتك الى ! » فأجابها : « أو أرسلتك أنت الى ٠٠ أنظرى الى يا طفلتى العزيزة ولا تفكرى فى شىء ! »

— لست أبالى بشىء ما دمت ممسكة بيدك ٠ ولن أبالى بشىء حين أتركها ، لو أسرعوا فى مهمتهم !

— سوف يسرعون ٠٠ لا تخافى !

وقبلته ، وقبلها ٠٠ ثم بارك كلاهما الآخر ٠٠ ولم ترتعد اليد الصغيرة وهو يفلتها من يده ! وكانت تلوح على وجهها مسحة عذبة من الصبر الجميل ٠٠

لقد جاء دورها ٠٠ وأحصت النسوة : « اثنان وعشرون ! »

وتبعها ايفريموند ٠٠ فارتفعت آلاف الابصار ، وضجت آلاف الحناجر ، وأحصت آلاف النساء : « ثلاثة وعشرون ! »

وقالوا عنه فى المدينة ، ذلك المساء ، انه كان أكثر الوجوه التى رأوها اطمئنانا وسكينة !٠٠ ولو نطق كارتون لحظتئذ بما يدور فى رأسه ، لسمعوه يقول :

« انى أرى بارساد ، وكلاى ، وديفارج ، والقاضى ، وصفوف طويلة من الرجال القساة ، يموتون يوما تحت هذه المقصلة نفسها ، قبل أن تكف عن مهمتها ٠٠ أرى مدينة جميلة تنهض على أنقاض هذا المكان المخيف ٠٠ وأرى هذا الشر العظيم يختفى بالتدريج !

« أرى النفوس التى من أجلها بذلت نفسى : آمنة ، نافعة ، وسعيدة ، فى ذلك الوطن الذى لن أراه أبدا !٠٠ أرى لوسى

وعلى صدرها طفل أطلقت عليه اسمى !·· وأرى والدها مسنا . محدودب الظهر ، ولكن مستمتعا بالسلام والخير ··

« أرى لوسى امرأة عجوزا تبكينى كلما ذكرت هذا اليوم ·· أراها وزوجها بعد موتهما يرقدان جنبا الى جنب فى فراشهما الارضى الاخير ، وأعلم أن كلا منهما لم يكن مكرما فى نفس صاحبه بأكثر مما أنا مكرم فى نفس كليهما !

« أرى الطفل المستكين على صدرها ـ والذى يحمل اسمى ـ وقد غدا رجلا ·· انه يشق طريقه فى الحياة ، فى نفس الدرب الذى سرت فيه ·· أراه يشقه بنجاح رائع ، يجعل اسمى مشهورا على ضوء شهرة اسمه !·· أراه يحمل طفلا ذهبى الشعر الى هذا المكان ، وأسمعه يقص على طفله قصتى بصوت يسيل رقة··

« ان ما أفعله الآن لخير بكثير من كل ما فعلت فى الماضى ·· وان الراحة التى أنا ماض اليها لخير بكثير من أية راحة عرفتها فى حياتى ! »

وزارة الصحة العمومية

تقبل عطاءات بمكتب مدير مخازنها بالعباسية لغاية الساعة العاشرة من صباح يوم ٥٣/١١/١٤ عن توريد الات جراحية مستهلكة ويمكن الحصول على الشروط مقابل ٧٠٠ مليم يضاف اليها أجرة البريد وتقدم الطلبات على ورقة دمغة فئة خمسين مليما ٥٧٣٧

وزارة الصحة العمومية

تقبل عطاءات بادارة مخازنها بالعباسية لغاية الساعة العاشرة تماما من صباح يوم ٥٣/١٠/٢٤ عن توريد الاغذية اللازمة لمستشفى الملك بالمبتديان وملحقاته اعام ٥٣/١٩٥٤ وتطلب قوائم المناقصة من ادارة المخازن على ورقة تمغة فئة خمسين مليما وثمن القائمة مائة وخمسون مليما يضاف الى ذلك ثلاثون مليما اجرة البريد

٥٧٢٠

اعلان مناقصة

تقبل العطاءات بمكتب تفتيش مشروعات رى قسم الشرق بالزقازيق لغاية الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٩٥٣ عن عمليات تعديل وتوسيع ترعة دفان وانشاء جنابياتها فى المسافة من الفم الى قنطرة حجز كيلو ١٤ر١٨٠ وتطلب المواصفات من مكتب التفتيش المذكور على ورقة تمغة فئة خمسون مليما نظير توريد مبلغ ٧٥٠ مليما باليد او ٩٠٠ مليمابالبريد ـ ويمكن الاطلاع على الرسومات بمكتب التفتيش المذكور ـ وسوف لا يلتفت للعطاء الغير مصحوب بتأمين مؤقت كامل قدره ٢٪ من قيمة العطاء ٥٧١٠

مصلحة البلديات

تقبل العطاءات بمجلس شبين الكوم البلدى حتى ظهر يوم ١١/٩/١٩٥٣ عن توريد عدادات كهربائية وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس على ورقة تمغة فئةالخمسين مليما نظير دفع مبلغ ٣٠٠ مليم للنسخة. وكل عطاء لا يرفق به تأمين ابتدائى قدره ٢٪ من قيمته لا يلتفت اليه ٥٧٢٨

مطبعة شركة الاعلانات الشرقية

هذه القصة

بين آلاف الكتب والقصص التى صورت عصر الثورة الفرنسية الكبرى وأحداثها الرهيبة ، تبقى « قصة مدينتين » نموذجا وحدها لأروع ما خطه قلم كاتب انسانى من آيات الفن الروائى ، والحبكة القصصية الجبارة - التى تبلغ حد الاعجاز ! - ثم التصوير البارع لأعمق خلجات النفس البشرية .. النفس التى اذا أحبت - صادقة الحب وخالصه - وهبت وافتدت وأعطت أضعاف ما أخذت !.

والمدينتان اللتان عناهما « ديكنز » بعنوان روايته هما باريس ولندن ، اللتان تجرى فيهما حوادث القصة ، وتتأرجح بينهما مصائر أبطالها فى تسلسل شائق تلهث منه أنفاس قارئها فيخال نفسه يعيش مع هؤلاء الأبطال فى ذلك الاطار الدموى المروع من الحديد والنار : يواجه ما يواجهون من أخطار واحتمالات ، ويعانى ما يعانون من كروب ومحن ، ويعشق من يعشقون من نفوس جديرة بأن تعشق .. وبالاختصار ، يشارك أبطال القصة عواطفهم المتأججة المتضاربة ، النبيلة والوضيعة .. العفيفة والعنيفة .. عواطف الحب والبغضاء ، والخيانة والوفاء ، والأنانية والفداء جميعًا !

مطبوعات
كتابي
يصدرها حلمي مراد

ص١٩، ٥١، ٥٥، ٦٠، ٦٧.

٧٤، ٨٠، ٨٥، ٩٠، ٩٤

٩٨، ١٠٤، ١٠٨، ١١٤، ١١٦

١٢٣، ١٢٨، ١٣٤، ١٤١، ١٤٩

١٥١، ١٥٩ غير موجودين من الكتاب

نقص